الموسوعة الصغيرة
١٩٠

مع الحريري في مقاماته

تأليف
د. نوري جعفر

الموسوعة الصغيرة

تصدرها

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد/وزارة الثقافة والاعلام

رئيس التحرير: موسى كريدي

سكرتير التحرير: ماجد اسد



دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

العراق - بغداد - اعظمية ص.ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هـ - ٤٤٣٦٠٤٤

الموسوعة الصغيرة

(١٩٠)

« مع الحريري في مقاماته »

الدكتور - نوري جعفر

الدراسة التي اضعها بين يدى القارىء ليست سوى ملاحظات عامة عابرة ابديتها على مقامات الحريري وآثرت ان اسجلها في بحث تتيسر مراجعته • وربما عدت الى تحويرها واستصلاحها حين يقتضيني البحث ذلك في المستقبل • ولهذا فاني اعتبرها ملاحظات قابلة للتجريح او التعديل على يدي او يد غيري من المعنيين بدراسة التراث الفكري العربي في الادب وغير الادب • وعلى أي حال فأنني لا أعدها إلا محاولة اولى، تمهد الى محاولات اخرى ارجو ان تكون اعمق واوفى ، كما أود ان ابين ايضا بصدد علاقتنا بالتراث(او علاقة الحاضر بالماضي) ان الاهتمام بالماضي يجب ألا يكون مفرطا او منصبا على جوانبه السلبية وتجسيدها تجسيدا انفعاليا على اعتبار أن الحاضر هو نتائج الماضي الذي لابد من العودة اليه لرفع الحاضر المتخلف الى مستوى اعلى من الناحيتين المادية والثقافية ، فالحاضر ليس هو مجرد الزمن الذي ياتي في اعقاب الماضي ولا هو وليده ، بل هو

الحياة في حركتها الصاعدة المتدفقة ابدا الى الاعلى والامام اذ تترك الماضي وراءها • أي أن الحاضر ليس مرده الى الماضي بل الى الحياة التي لايخرج الماضي عن كونه أحد تعبيراتها • فلابد ان يكون الحاضر وحده (بمشكلاته وامكانياته وخصائصه وفي ضوء قرينته التاريخية) منطلقنا وان يصار الى التراث بمقدار تعلقه بالحاضر وان يكون اهتمام المعنيين بدراسة التراث مركزا على جوانبه الايجابية وتطويرها واثرائها وفق مستلزمات المرحلة التاريخية الراهنة وفي المستقبل ايضا • اما النقطة الثانية فتتعلق بالتراث الفكري العربي نفسه كما اراه لأنه الاطار العام الذي تبلورت ضمن حدوده مقامات الحريري التي نحن بصدد تحليل محتواها تحليلا سايكولوجيا واجتماعيا ، والى القارىء الملامح الكبرى لهذا التراث كما اتصورها :ـ

اولا ـ تبلور التراث الفكري العربي في بغداد في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي منذ نشوء مدينه

المنصور المدورة ٧٦٢م • واستمر متدفقا متطورا صاعدا حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي • عندما سقطت بغداد بيد الغزاة التتر بقيادة هولاكو ١٢٥٨م •

ثانيا ــ التراث الفكري العربي هو ــ في جوهره ــ ثمرة جهود مشتركة بذلها مواطنو الدولة العباسية من العرب وغير العرب ومن المسلمين وغير المسلمين وبخاصة المسيحيون الممثلون بأسرتي حنين وبختيشوع[1] والصابئة ، لاسيما الطبيب المشهور ثابت بن قرة (٨٣٦ ــ ٩٠١) والطبيب والرياضي ابراهيم الصابي (٩٢٥ ــ ٩٩٤م) وهو غير هلال الصابي (٩٦٩ ــ ١٠٥٦) ــ الاديب اللغوي والشاعر والمؤرخ •

١ ــ لاسيما اسحق بن حنين وابوه حنين بن اسحق اللذان عاشا في القرن العاشر الميلادي . وجورجيرس بن بختيشوع وابنه جبريل في القرن التاسع الميلادي .

ثالثا ـ اتصف المجتمع العباسي بالانفتاح على المجتمعات الاخرى وامتص ثقافتها التقدمية وعلومها الطبيعية ، ولكنه لم يقف عند مجرد النقل والاقتباس الميكانيكي بل طور ما اقتبسه واثراه واضاف اليه .

رابعا ـ اصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة على الصعيدين المحلي والعالمي على حد سواء . تماما كما كانت الحال بالنسبة للغة اللاتينية واليونانية . ولكنها ايضا حلت محلهما بعد سقوط الامبراطورية الرومانية على يد البرابرة الجرمان والفرنك في القرن السادس الميلادي[٢] . وقد لعبت اللغة

---

٢ ـ وقد اعقب سقوطها بعد فترة وجيزة نسبيا نشوء دولة الفرنك التي اشتهر ملوكها شارل مارتل (٧١٧ ـ ٧٤١م) الذي خسر معركة بواتيه (بلاط الشهداء) ٧٣٢م في حربه ضد العرب الفاتحين بقيادة عبدالرحمن الغافقي الذي استشهد اثناء القتال ، ومن اعقاب شارل مارتل هذا شارلمان (٧٦٢ ـ ٨١٤) المعروف بعلاقاته الدبلوماسية مع

العربية دورا ثقافيا تقدميا هاماً آخر بالنسبة للثقافة العالمية آنذاك . فقد اعادت الى الغرب التراث الفكري اليوناني القديم .. اصوله المترجمة الى اللغة العربية مع الحواشي والتعليقات والاضافات . ولولا اللغة العربية والفكر العربي النير لانطمست معالم التراث اليوناني واندثر باندثار الامبراطورية الرومانية وذلك لان القبائل البربرية الغازية التي اطاحت بالامبراطورية الرومانية خربت ايضا منجزاتها الثقافية تماما كما فعل التتر بمدينة بغداد .

خامسا ـ اتسع نطاق التراث الفكري العربي وتشعبت ميادينه وشمل جميع اوجه النشاط الفكري

الرشيد وقد اعلنه البابا امبراطورا . ولكن الامبراطورية انهارت بعد وفاته لعوامل تاريخية معروفة يقع بحثها خارج نطاق هذه الدراسة الادبية الموجزة .

الشائع آنذاك ، فشمل بالاضافة الى الجوانب المحلية (العلوم الدينية واللغويـة) الفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيـات والفيزيـاء والكيمياء والجغرافية والتاريخ وعلم النفس والتربية واتصف المشتغلون به بغزارة المعرفة وتعدد الاختصاصات وبالتواضـع العلمـي والمثابرة والتتبع • وكان كل منهم في الحقيقة موسوعة علمية ضخمة تجمع بين الفلسفـة والطب وعلم الفلك الى جانب اللغة والشعر وحتى الموسيقى احيانا ، وهذه ظاهرة ثقافيـة فريدة في بابها لم يسجل التاريخ ــ على ما نعلم ــ نظـيرا لها في المجتمعـات القديمـة والحديثة باستثناء عصر النهضة الاوربية التي حصلت في اواخر العصور الوسطى ــ وفي ايطاليا بالذات في القرن الخامس عشر الميلادي عندما ظهر عمالقة الفكر الغربي الحديث وفي

وفي مقدمتهم ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، ومع ذلك فهناك فارق بارز بين رواد الفكر العربي وزملائهم في عصر النهضة الاوربية (الذين جاؤوا من بعدهم متأخرين من الناحية الزمانية) هو أن رواد الفكر العربي كانوا اكثر عددا واوسع افقا واغزر معرفة على وجه العموم وكانوا ايضا متحدرين من اصول اجتماعية متواضعة (من عامة الناس) بمقاييس اهل ذلك الزمان بعكس زملائهم الارستقراطيين الغربيين . كما ان ظروفهم الخاصة المرتبطة بالحصول على المعرفة كانت دون المستوى الذي بلغته ظروف المجتمع الاوربي في عصر النهضة اثناء فترة صعود المجتمع وانتقاله من المجتمع الاقطاعي المنهار الى النظام الرأسمالي الصاعد آنذاك . ورواد الفكر العربي العلمي التقدمي تتعذر الاحاطة بهم منهم على سبيل

التمثيل لا على سبيل الحصر الاسماء اللامعة التالية في الاختصاصات الواسعة المتعددة : الرازي (٨٦٤ ــ ٩٣٢ م) وابن سينا (٩٨٠ ــ ١٠٣٧م) والفارابي (٨٩٠ ــ ٩٥٠م) وابن رشد (١٢٢٦ ــ ١١٩٨م) والكندي (٨٠٠ ــ ٨٧٩م) وابن باجة المتوفي ١١٣٨ وابن طفيل المتوفي ١١٨٦م والبيروني (٩٧٣ ــ ١٠٤٨م) وجابر بن حيان المتوفي ٧٧٦م والخوارزمي (ابو عبدالله محمد الذي عاش في القرن التاسع الميلادي) وهو غير ابي بكر الخوارزمي الاديب • وابن الهيثم (٩٦٥ ــ ١٠٣٩م) وعلي بن يونس (٩٥٠ ــ ١٠٠٠م) والمجريطي المتوفي ١٠٠٧م والبلخي (٧٨٨ ــ ٨٨٦م) والشريف الادريسي (١١٠٠ ــ ١١٦٥م) والاصطخري الذي عاش في القرن العاشر وابن جبير (١١٤٥ ــ ١٢١٧م) وقدامة بن

جعفر الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وابن بطوطة (١٣٠٣ ـ ١٣٧٧م) وابن ماجد الذي عاش في القرن الخامس عشر وابن حوقل المتوفي ٩٧٧م وياقوت الحموي (١١٧٩ ـ ١٢٢٩م) والواقدي (٧٤٧ ـ ٨٣٢م)، والبلاذري (٨٢٠ ـ ٨٩٢م) والطبري (٨٣٢ ـ ٩٣٢م) والمسعودي المتوفي سنة ٩٥٧م ومسكويه المتوفي ١٠٣٠م وابو الفداء (١٢٧٣ ـ ١٣٣١م) وابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) وابن الاثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٣م)، واليعقوبي المتوفي ٨٩٠ م، ولابد من الاشارة هنا الى ان هذه الشخصيات العلمية التاريخية الفذة هي ثمرة ظروف اجتماعية فذة هي الأخرى وملائمة ادت الى ظهورها وهيأت لها امكانيات التفتح والازدهار الذهني . وعندي ـ اذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ـ ان

هذه الشخصيات بالذات لو لم تظهر آنذاك فأن شخصيات اخرى مماثلة لابد ان تظهر لوجود الجو الاجتماعي الملائم • وقد عملت الشخصيات الفذة المشار الى اسمائها بدورها على تهيئة جو إجتماعي لاحق ملائم لحصول تقدم علمي آخر ولكن ثمراته لم تنضج لعوامل تاريخية ما زال بعضها ـ مع الاسف الشديد ـ يعمل الى اليوم ويعرقل تحقق التقدم الاجتماعي المنشود •

سادسا ـ اقترن العلم النظري عند العرب بالجانب التطبيقي (والتكنولوجي ايضاً بالتعبير الحديث) واصبح ايضا اداة لحل قضايا اجتماعية ملحة في الصناعة والزراعة والطب والري والتجارة وفي الاسفار •

سابعا ـ التراث الفكري العلمي العربي يجمع بين الغث والسمين بالمقاييس العلمية الحديثة • وهذه سنة التطور الاجتماعي والفكري لدى العرب وغير العرب في كل مكان • وهي ابرز صفات العلم وعصب الحياة فيه • فلم يكن كل ما جاء به نيوتن (١٦٤٣ ـ ١٧٢٧) صحيحا بالمقاييس الفيزيائيـة المعاصـرة • وقد سمـى انشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٦٦) نظريته النسبية كما هو معروف •

ثامنا ـ لم ندرس لحد الآن ـ على ما اعلم ـ تراثنا الفكري دراسة موضوعية شاملة ومباشرة بل درسه غيرنا في الغرب لعوامل كثيرة موضوعية وذاتية • موثوقة ومتحيزة احيانا • عميقـة وسطحية في بعض الاحيان • فقد بدأ الغربيون دراسة التراث الفكري العربي منذ نهاية القرن السادس عشر وكانت مراكزه الكبرى آنذاك

في لايدن وروما وباريس • أما عوامـل دراسته فكانت متعددة لعـل ابرزها (بعـد الحروب الصليبية) نشوء الروابط الاقتصادية التجاريـة والعلاقات الدبلوماسية والبعثات التبشيرية ، ثم اتسع نطاق المراكز الغربية المعنية بدراسة تراثنا الفكري وتعددت عوامل دراستها اياه منذ القرن التاسع عشر وبخاصة بعد فتح قناة السويس ١٨٦٩ واكتشاف منابـع النفط في شمال العراق والتنافس الشديد بين الدول الغربية الكبرى وبخاصة بريطانيا والمانيا ومد سكـة حديـد بغداد ــ برلين • ثم اتسع ذلك النطاق منذ مطلع هـذا القرن ودخلت فيـه الولايـات المتحدة الامريكية • وقد اخذت الدراسـات الغربيـة المشار اليها في تفسير طبيعة التـراث العربـي وتقدير اهميته اتجاهين متعارضـين ولكنهمـا يخدمان غرضا واحدا : الاتجاه الاول يرمي الى

تجسيد الجوانب السلبية في التراث واثارة المشاعر الجامحة ازاءه واغفال كل ما هو تقدمي ومشرق فيه وهذا الاتجاه اللا علمي واللا تاريخي لايخدم التراث نفسه ولايخدم المجتمع العربي المعاصر بل يضرهما ويحقق اغراضا ايديولوجية تتنافى وحركة التحرر الوطني العربي الثقافي والسياسي . اما الاتجاه الآخر فينزع اصحابه نحو طمس معالم التراث باسره واثارة الشكوك في قيمته واعتباره غير منسجم مع مستلزمات التقدم الاجتماعي الحديث . وهذا الاتجاه هو المقبول لدى الجيل العربي الصاعد وهو الذي يبعد الجيل عن التراث ويقطع صلته به ويصد جهوده عن بعثه وتطويره واثرائه . (حبذا لو شكلت جامعة الدول العربية لجانا متعددة من المتخصصين في فروع المعرفة العلمية المختلفة لدراسة التراث دراسة مباشرة كل لجنة في مجال

تخصصها تمهيدا لنشر ذلك في موسوعة خاصة) .

تاسعا ــ بلغ التقدم العلمي اوج ارتفاعه في القرن التاسع الميلادي وعبر عن نفسه باشكال متعددة لعل ابرزها نشوء دار الحكمة في عهد المامون بعلمائها الافذاذ ومكتبتها المشهورة ومرصدها الذائع الصيت . والتقدم العلمي الرائع المشار اليه يتجلى بأوضح اشكاله اذا نظرنا اليه في ضوء قرينته التاريخية وبالموازنة بما كانت عليه الحال في القارة الاوربية وقديما قيل (وبضدها تتميز الاشياء) ، فقد كان القرن التاسع بالذات « القرن المظلم » في اوربا بتعبير المؤرخين الغربيين القدامى منهم والمحدثين . يضاف الى ذلك ان وقوف السلطة السياسية ومعها الكنيسة الرسمية (الكاثوليكية والبروتستانتيه معا) ضد الفكر العلمي بالذات ، فقد احرقت

بعض رجاله الافذاذ على مــرأى مــن الناس (برونو ١٥٤٨ ـــ ١٦٠٠ مثلا) ولاحقت بعضا آخر بالمضايقة والايذاء (كوبرنكس ١٤٧٣ ـــ ١٥٤٣ وغاليلو ١٥٦٤ ـــ ١٦٤٢ مثلا) ، كمــا عبر مارتن لوثر (١٤٨٣ــ١٥٤٦)عندما علق على آراء كوبرنكس العلمية بعبارته المعروفة « علمت ان دجالا كبيرا يحاول عبثا افساد نظام الكون الراسخ الذي خلقه الله بصورة محكمة وجعل الارض الثابتة مركزه وأمر الشمس ان تقف اجلالا ليشوع ولم يأمر الارض » كما ان كتاب كوبرنكس الموســوم (حــول حركة الاجرام السماوية) قد وضع في قائمة الكتب المحرمة واستمر اساتذة الجامعات الاوربية فترة زمنية تجاوزت قرنين لايعينون في مناصبهم إلا بعد تأدية قسم يعلنون فيه امام الملأ براءتهم من آراء كوبرنكس أو بدعه بالتعبير الشائع في ذلك

الزمان . أما غاليلو فقد تعرض هو الآخر للملاحقة والايذاء لكونه فند تفنيدا تجريبيا آراء ارسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق • م) التي دعمتها السلطة السياسية الاقطاعية والكنيسة واعتبرت الخارجين عليها زنادقة يستحقون القتل • كما ان الجهات الرسمية في مدينة فلورنسة ــ مسقط رأس غاليلو ــ رفضت طلبا تقدم به المواطنون المعجبون به لاقامة حفل تأبيني له • ولم تسمح ايضا بتشييد ضريح له إلا بعد مرور اكثر من قرن على وفاته • في حين ان السلطة السياسية العباسية ــ وفي عصر المامون بالذات ــ والدين الاسلامي الحنيف كذلك وقفا من العلم موقف التأييد والتشجيع ومن العلماء موقف التقدير والتبجيل • أما الحالات النادرة المغايرة فمردها تزمت بعض الافراد وضيق افقهم وتعصبهم الذميم •

لاشك عندي في ان تقدير الاهمية الاجتماعيـــه والايديولوجية للاديب من ناحية محتوى ادبه او مضمونه ومن ناحية الجانب الفني او الجمالي لأسلوب تعبـيره وبراعته اللغوية ومن ناحية اناقة الالفاظ وغزارتها يتوقف ـ بالدرجة الاولى والاهم ـ على النظر الى تراث الاديب نظرة تطورية تاريخية ـ شاملة وعميقة ـ في ضوء قرينته الاجتماعية بالنسبة لعصره ومجتمعه • وهـذا يستلزم ان يأخذ الباحث ـ بعين الاعتبار ـ ثلاثة عوامل كبرى متلاحمة ومتبادلة الأثر وإن كانت ايضا متميزة عن بعضها بشكل واضح : فلابد من النظر ـ اولا ـ الى طبيعة الفترة الزمنية التي عاش فيها الاديب المعني من حيث خصائصها التاريخية البارزة المتميزة على الصعيد المحلي والعالمي ومن ناحية التناقضات الاجتماعية الكبرى الشائعة اثناء تلك الفترة للكشف عن مدى تغلغل الاديب ـ موضوع البحث ـ في اعماقها ومدى انعكاس ذلك التغلغل في ادبه بشكل واضح او ضمـنـي • ولابـد

ـ ثانيا ـ من اماطة اللثام عن نزعة الاديب العامة وخصائصه الاجتماعية ومدى نضجه الفكري وحرارة مشاعره وعمقها ومهارته الادبية واصالته الفنية وسعة الاحكام التي يطلقها على الاحداث والناس ودقتها وعمق الاستنباطات الاجتماعية التي يتوصل اليها كما يبدو ذلك في انتاجه الادبي . ولابد ـ اخيرا ـ من النظر الى فنه اللغوي او براعته في التعبير في ضوء الاسلوب الامثل الشائع في مجتمعه وغزارة مفرداته اللغوية واناقتها . وهذا هو الاساس الذي استندت اليه دراستي المتواضعة هذه عن الحريري في مقاماته الطريفة .

ولاشك عندي ايضا في ان للادب صلة عضوية متبادلة الاثر بالسياسة والاقتصاد شأنه في هذا شأن اوجه الحياة الفكرية الاخرى . والصلة المشار اليها اتضحت تاريخيا بشكل او بآخر في مجتمع الرق وفي عهد الاقطاع . وتتضح ايضا في الوقت الحاضر في جميع المجتمعات بصرف النظر عن اختلاف انظمتها السياسية

والاقتصادية • وقد تجلت بأوضح اشكالها المتبلورة في فرنسه في الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ على هيئة ولاء (أو انتماء فكري) لهذه المرتبة الاجتماعية او تلك ولهذه الفئة او الكتلة الاجتماعية او تلك في حدود المرتبة الاجتماعية الواحدة • وتجلت بعد ذلك على شكل انتماء طبقي او قومي او اقليمي محلي • وهذا هو بنظرنا مبدأ الالتزام في الادب الذي هو في جوهره ــ من هذه الزاوية ــ شكل من اشكال الانتماء او الولاء او الالتزام السياسي والاقتصادي الذي يستند بعد التحليل الدقيق الى فلسفة معينة يتخذ منها الاديب بشكل او بآخر نقطة انطلاقه في انتاجه الادبي • والالتزام المشار اليه يتخذ في مجال الادب بصورة خاصة احد شكلين متنافرين هما على وجه العموم الالتزام التقدمي ونقيضه المحافظ • وهذا يعني بعبارة اخرى ان الاديب يتخذ موقفا خاصا به سلبيا او ايجابيا مقبولا او غير مقبول بنظر غيره ازاء الواقع وبخاصة الاجتماعي منه والسياسي والاقتصادي

الذي يصفه في ادبه بشكل او بآخر ضمنيا بالتلميح او عن طريق الرموز والالغاز احيانا او بشكل سافر صريح احيانا اخرى • وهذا الموقف يتجلى اولا وقبل كل شيء في الجوانب السياسية والاقتصادية التي ينتقيها الاديب من الواقع الذي يعيش فيه والتي يركز اهتمامه فيها اكثر من غيرها ويجسدها • ويجعلها محور أدبه ويجلب انظار الآخرين نحوها • كما يظهر موقفه ايضا في اطرائه ما ينتقيه او يختاره من واقعه الاجتماعي وفي شجبه نقيضه • وهنا تتضح ايضا نزعته الاجتماعية التقدميـــة او المحافظة مع اختلاف في مستوى نضجها ودرجة تقدميتهـــا او بالعكس • وقد يقع الكاتب اثناء ذلك ـ دون قصـــد احيانا ولعوامل لا سيطرة له عليها ـ في تناقض ملحوظ او ضمني عرضي او طارىء يبدو في نتاجه الادبي اذا ما طبقت عليه مقاييس غيره ممن عاصروه أوجاؤوا من بعده• وكثيرا ما يحمل الكاتب نفسه آراء مغلوطة ومحافظة جنبا الى جنب مع ارائه الصحيحة والتقدمية وذلك بفعـــل

ظروف بيئية محلية لا سيطرة له عيها في كثير من الاحيان • ومحك ذلك برأينا ليس هو مجرد وجود الاراء المغلوطة او المحافظة ذاتها (حتى وان كانت متأصلة وغير طارئة) وكثيرة ايضا بل هو موقعها او مكانتها في تفسير نزعته العامة ازاء قضايا مجتمعه وعصره الكبرى الملحة وتاريخ نشوئها عنده • فاذا كان اتجاهه العام سليما وتقدميا في ملامحه الكبرى في مرحلة نضجه الادبي بالنسبة لظروف مجتمعه وعصره فأن اخطاءه الاخرى ــ الكبيرة والكثيرة احيانا ــ لاتقلل بأية حال من الاحوال من منزلته الادبية التقدمية • وفي هذا الضوء يبرز الحريري الذي عاش قبل زهاء ١٠٠٠ عام (١٠٥٤ ــ ١١٢٢) كاتبا تقدميا بارزا واصيلا بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة على حد سواء •

لقد كان الحريري اديباً تقدميا ملتزما من الناحيتين الاجتماعية والايديولوجية ومن الناحية الفنية الجمالية اللغوية • أي انه بنظرنا اديب ملتزم من ناحية محتوى

ادبه ومن ناحية اسلوب التعبير • فقد كان ملتزما (من حيث المحتوى الاجتماعي) بمبدا العدالة الاجتماعية وملتزما ايضا باستهجان الظلم والاضطهاد • وكان ملتزما (من ناحية التعبير) بكل ما هو انيق وجميل من حيث الالفاظ المترفة المنتقاة ومن ناحية انتظامها في العبارات والفقرات والمقامات • وكان ملتزما ايضا ازاء تمجيد كل ما هو جميل ونظيف في علاقات الناس الاجتماعية وتصرفاتهم من جهة وازاء شجب كل ما هو قبيح وناب في حياة الافراد وفي ارتباطاتهم الاجتماعية من جهة اخرى • وقد ظهر ذلك كله بأجلى صورة في مواقف الحارث بن همام الذي يرمز الى الحريري نفسه ازاء تصرفات ابي زيد السروجي الذي يعبر عن الشائع المستهجن في علاقات الناس • والحريري من هذه الزاوية اديب تقدمي بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة ايضا • وهذا يعني بعبارة اخرى انه كاتب لامع تخطى حدود عصره ومجتمعه وخاطب الاجيال اللاحقة وما زال كذلك

الى اليوم وسيبقى ، فما زالت مقاماته تتحدى الزمان والمكان ولاتقتصر أهميتها على ظروفها المحلية الزمانية والمكانية • أي أن الحريري لم يكتب لمعاصريه حسب، وانما كتب ايضا لغير معاصريه : للقراء المحتملين عبر الاجيال وفي مختلف المجتمعات •

يستطيع الباحث ان يقول ان مجتمع الحريري كان متخلفا من بعض الجوانب بالمقاييس الحضارية الحديثة، حيث انتشر نظام الاقطاع ونزعة الحكم الفردي المطلق، وان كان ذلك المجتمع ـ في الوقت نفسه ـ مجتمعا تقدميا ـ بالنسبة لظروف الزمانية والمكانية وفي ضوء قرينته التاريخية • وهذا يعني ان مجتمع الحريري اتصف ايضا بجوانب انسانية تقدمية وان جوانبه السلبية التي جسدها الحريري في سلوك ابي زيد السروجي ليست مقصورة على ذلك المجتمع وحده في ذلك الزمان وحتى في زماننا هذا • أي أن سلوك السروجي لاينطبق على سلوك جميع المواطنين • وحتى اكثريتهم آنذاك • كما

ان مجتمع الحريري لاينفرد وحده بتلك الجوانب السلبية دون سائر المجتمعات التي عاصرته والتي جاءت من بعده • ويلوح ان الجوانب السلبية المشار اليها هي التي حملت الحريري ـ وهو الاديب المرهوف الحس ـ مالا طاقه له به فعبر عن امتعاضه منها بطريقته الخاصة ومبالغاته الطرية تعبيرا سايكولوجيا عميقا تصبغه اللوعة وحرارة المشاعر الجامحة • وهذا يعني بعبارة أشمل أن الحريري عاش في ظروف اجتماعية (اقتصادية وسياسية) متردية منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وبخاصة بالنسبة لجماهير الشعب ومراتبه الدنيا • فقد ساءت كثيرا الاوضاع الاقتصادية والادارية واصبح الاستقرار السياسي ـ مفقودا والامن مزعزعا • وبدا الناس يشعرون بالتمزق والضياع او عدم الانتماء • أما العوامل الأساسية التي أدت الى ذلك فتعود في الأساس الى تدهور السلطة المركزية (الخلافة العباسيه) الأمر الذي ادى الى تمرد الأمراء وانفصالهم في مقاطعاتهم

عن جسم الدولة الواحد تلو الآخر وتكوينهم دويلات أو إمارات متعددة ومتنافرة :(وتفرقوا شيعاً فكل مدينة : فيها أمير المؤمنين ومنبر) (بعضها غريب عن البيئة العربية / كما حصل اثناء فترة الحكم البويهي ٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ واثناء فترة حكم السلاجقة الذي اعقب ذلك واستمر اكثر من قرن / وهو العهد الذي نشأ فيه الحريري وترعرع وشهد ايضا مصرع الملك السلجوقي ملكشاه ووزيره نظام الملك . كما ان الفترة التي عاش فيها الحريري شهدت بداية الحروب الصليبية واحتلال القدس وكان ذلك قبيل سقوط الخلافة العباسية بزهاء قرن ونصف . ومع ذلك فان ظهور دول الطوائف لايخلو من مزايا من بعض النواحي وبخاصة اذا تذكرنا عدم كفاءة كثيرين من الخلفاء العباسيين المتأخرين في ادارة شؤون الدولة بحزم ووقوعهم تحت سيطرة رجال الحاشية الماكرين العسكريين والمدنيين واضطراب الاحوال العامة في حاضرة العرب الكبرى ـ مدينة

السلام ــ كما ان الوضع السياسي المتدهور في مركز الخلافة العباسية ادى الى انعاش التقاليد العربية التي تعتبر المثلى الاعلى للرئاسة أتصاف صاحبها بالشهامة والسماحة والاريحية او المروءة والنخوة التي يلوح ان الخلفاء العباسيين المتأخرين كانوا يفتقرون اليها لعوامل ذاتية وموضوعية. ومع هذا فانملوك الطوائف لم يقطعوا صلتهم الروحية ــ الشكلية بالطبع ــ بمركز الخلافة العباسية وان كانوا بالفعل قد تمردوا عليها واخذوا ينافسونها .

وبالرغم من التردي السياسي المشار اليه ــ وربما بسببه ــ فقد انتعش الادب « وان كانت سوقه كاسدة » بتعبير الحريري نفسه . بمعنى ان مردوده المادي ضئيل للعوامل السياسيه والاقتصادية المتردية التي اشرنا اليها . وقد برز الحريري ــ في تلك الفترة بالذات ــ اديبا من الطراز الاول . ويلوح ان ظاهرة انتعاش الادب في ظروف سياسية واقتصادية فاسدة ظاهرة مألوفة في

التاريخ • فقد شهدت فترة التدهور السياسي والاقتصادي في اسبانية في القرن السابع عشر مثلا ـ انتعاش الادب وظهور فئة من ابرز الكتاب في تاريخها نذكر منهم على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر فلا سكوز وزربران وريبيرا وكالديرون وسيرفانتيز ولوب ذي فيكا • وشهدت روسية القيصرية الاقطاعية المتدهورة سياسيا واقتصاديا في النصف الاول من القرن الماضي تقدما ادبيا مذهلا عندما برزت فئة من المع الكتاب والشعراء والفنانين يأتي في مقدمتهم بوشكين وكوكول وميرمونوف كيليفكا وداركو مشيفزكي وفيداتوف • كما شهدت روسية القيصرية ايضا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اثناء تخلفها السياسي والاقتصادي المتمثل بانتشار القنانة والاقطاع والحكم القيصري الاوتوقراطي الفاسد تطورا ادبيا رائعا ممثلا في برجنيف ودوستويفزكي وتولستوى وجيكوف وشيدرن

ومسوركازكـــي وبـــوردون وربـــين وجيكوفيزكـــي وسرتيكوف .

تجنب الحريري على القـدر المستطاع الانغمـار المباشر والعنيف في الملابسات السياسيـة والتيـارات الاجتماعية الحادة المتضاربة . وتحامى الصراع الدائر انذاك بين مختلف الفئات السياسية المتنافسة من اجل الاستئثار بالسلطة السياسية رغم روابطه بالمسترشد بالله (١٠٩٣ ـ ١١٣٢) الخليفة العباسي التاسع والعشرين عبر وزيره جمال الدين عميد الدولة كما سنرى (لا عبر وزيره الآخر شرف الدين ابي النصر بن خالد بن محمد القاشاني كما يذكر بعض الرواة) . كما كان الحريري ايضا وثيق الصلة بالامير دبيس بن صدقة الفارس العربي المشهور الذي لقب ملك العرب على ايـام الحـروب الصليبية والذي اطراه الحريري في احدى مقاماتـه . ورغم كون الحريري شغل منصب صاحب الخبر او رئيس خدمة الاعلام في ديوان الخلافة .

اتصف الحريري بثقافته اللغوية الواسعة وبمعرفته العميقة بأسرار اللغة العربية • وعبر عن ذلك في مقاماته التي هي موضوع بحثنا هذا وفي كتابه درة الغواص في اوهام الخواص الذي يبين فيه اوهام الكتاب واخطاءهم وفي ارجوزته في النحو المسماة « ملحمة الاعراب » هذا بالاضافة الى ديوان رسائله وشعره الكثير بالاضافة الى الشعر الذي ورد في المقامات• وتلك علامات على انصرافه الى الادب وانغماره فيه كهواية رغم كساد سوقه • والعامل الرئيس في ذلك هو حالته المالية الجيدة التـــي ساعدته كثيرا على الانصراف نحو دراسة الادب • فقد كان والده ــ على ما يقول الرواة ــ تاجر حرير في مدينة البصرة ومن هنا اكتسب تسميته بالحريري كما ان لوالده ايضا بساتين نخيل ورثها ابنه بعد وفاته • أما صفة الحريري الاخرى (الحرامي) فلكونه عاش في منطقــة بني حرام في البصرة وهم قبيلة عربية ، كما ان مقامته « الحرامية » مشتقة من هذا الاسم •

شهدت الفترة التي عاش فيها الحريري (والفترة التي سبقتها ايضا) نشوء فئة من الادباء المتجولين المنحدرين من المراتب الاجتماعية الدنيا ـ بمقاييس اهل ذلك الزمان ـ اخذوا يطوفون ارجاء البلاد العربية والاسلامية ينشدون الاشعار ويرددون الطرائف الادبيه والنوادر ويعقدون المناظرات الادبية في مجالس الاثرياء والمتنفذين والامراء وفي الاماكن العامة لاكتساب الرزق • ومسلكهم هذا شبيه ـ من حيث الاساس ـ بمسلك فئة اجتماعية مماثلة نشأت في اوربا انذاك يطلق عليهم اسم « المشردين الذين يتكسبون برواية الاشعار » • وهم في حقيقتهم متسولون متجولون اداتهم الوحيدة في كسب الرزق ما ينشدونه من اشعار وما يرتجلونه وما يروونه من قصص خيالية وحكايات خرافية في قصور الامراء وذوي المكانة الاجتماعية المرموقة لأغراض الترفية وللحصول على المكافآت • وكان بعضهم ينشيء ما يشبه المقامات عندنا (وبخاصة في اسبانيا) يصفون فيه حياة المتسولين

المشردين المغامرين الشجعان الذين يتصفون ايضا بشيء من المكر او الدهاء والاحتيال • غير أن ظاهرة الكدية ــ بشكلها الذليل المتلون ــ كما ظهرت بصورة خاصة في المقامة الثانية / الحلوانية وكما ظهرت بوضوح ايضا في المقامة التاسعة والاربعين / الساسانية ــ ظاهرة اجتماعية غريبة عن المجتمع العربي بنظرنا لانها تتنافى والاباء او الشمم الذي يتصف به العربي بصرف النظر عن منزلته الاجتماعية الفعلية • وهي ظاهرة اجتماعية دخيلة او وافدة امتهنتها الفئات الاجتماعية الواطئة غير العربية الاصل زعمت ــ على ما يقول بعض الرواة ــ انها متحدرة من سلالات عريقة غير عربية ازرى بها الدهر نزحت الى مركز الخلافة الاسلامية بعد ان اعتنقت الاسلام ، أو أنها مهنة ابتدعها شخص غير عربي معين بالذات اسمه ساسان كما يبدو من مقامة الحريري التاسعة والاربعين المشار اليها •

اخذت المقامات في الادب العربي طابعها المتبلور عند بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩ ـ ١٠٠٧) وكان ابو الفتح الاسكندري بطلها وعيس بن هشام راويتها / وهما معا شخصيتان اسطوريتان (وهميتان) ابتدعهما الهمذاني نفسه (لا بالمعنى الميتافيزيقي بل بالمعنى الواقعي كما سنرى) اولهما ـ ابو الفتح الاسكندري ـ اديب ماكر متلون يلبس لكل حالة لبوسها • والثاني ـ عيسى بن هشام ـ تاجر موسر يتنقل في ارجاء المملكة العربية الاسلامية لتعاطي البيع والشراء • وكان هذا التاجر الموسر كلما دخل بلدة جديدة وطاف في ارجائها قادته الظروف الى ان يقف وجهـا لوجه امـام ابي الفتـح الاسكندري ويراه بزي جديد يمارس مهنة كلامية جديدة يروى القصص وينشد الاشعار ويستخدم المكر والتلون لكسب عطف السامعين والمشاهـدين ونيل عطائهم • وكان عيسى بن هشام ـ اثناء ذلك ـ يتربص الدوائر بأبي الفتح الاسكندري ويداهمه متلبسا بالمكر والتضليل

ثم يتبعه خلسة ـ بعد انتهاء المقامة فيجده يفعل بخلاف ما يقول فيفضحه ويلومه ايضا • ومقامات البديع لاتجمعها وحدة موضوع ولكنها ترتبط فيما بينها عبر شخصية ابي الفتح المتلونة والمحبوبة التي يتعرف عليها عيسى بن هشام ويفضحها كما ذكرنا • وجوهر شخصية ابي الفتح الاسكندري اورده ابو الفتح الاسكندري نفسه الذي وصف نفسه بالمكر والخداع او التضليل والاحتيال واوصى ان يكون المرء دائما كالحرباء ـ يتلون حسب الظروف ليكسب معركة الصراع من اجل البقاء •• ومقامات البديع احدى وخمسون مقامة طريفة تصدى لشرحها كثير من الأدباء وهي معقدة التركيب نسبيا في فحواها وذات اسلوب طري مفعم بالسجع الشعري وبالتورية والجناس والكناية التي تلائم ذوق اهل ذلك الزمان وان كانت مستعصية الفهم من الناحية اللغوية ـ إلا على فئة قليلة جدا من الخبراء من اهل ذلك الزمان وفي الوقت الحاضر•

ومن طريف ما يروى عن الهمذاني انه كان يحفظ القصيدة التي تتجاوز خمسين بيتا ويؤديها الى آخرها لاينخرم منها بيت بمجرد سماعه انشادها مرة واحدة . كما انه ايضا على ما يقال كان ينظر نظرة واحدة خفيفة الى الاربع والخمس الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ثم يعيدها عن ظهر قلبه . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح فيبتدىء بآخر سطر ثم هلم جرا الى الاول . وهذه ظاهرة سايكولوجية معروفة لم يستطع علماء النفس ايجاد تعليل علمي لها نحد الآن على ما نعلم . ولها نظائر كثيرة قديمة وحديثة . فمن نظائرها القديمة في الأدب العربي ما رواه البحتري عندما دخل على ابي سعيد محمد بن يوسف الشفري وانشده « أأفاق صب من هوى فأفيقا » وأبدى أبو يوسف سروره بها وقال « احسنت والله يافتى واجدت » . وفي مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه فوق كل من حضر تكاد تمس ركبته فأقبل هذا الرجل على البحتري ثم قال : « اما تستحي مني ؟ هذا

شعري تنتحله وتنشده بحضرتي ؟ فقال ابو سعيد احقا ما تقول ؟ قال نعم ، وانما علقه مني وسبق به اليك وزاد فيه » ثم اندفع ينشد اكثر القصيدة حتى شكك البحتري في نفسه وبقي متحيرا ، فقال ابو سعيد : « يافتى قد كان لك في قرابتك مني ما يغنيك عن هذا » فجعل البحتري يحلف بكل محرجة من الايمان ان الشعر له ، فلم ينفع ذلك شيئا ، واطرق ابو سعيد فقال البحتري وقطع بي حتى تمنيت ان يساخ بي في الارض فقمت منكسف البال أجر رجلي فما بلغت باب الدار حتى ردني الغلام ، فاقبل على الرجل وقال : « الشعر لك يابني ، والله ماقلته قطولا سمعته إلا منك ... ودعاني وضمني اليه وابو سعيد يضحك ، فلزمته بعد ذلك واخذت عنه واحتذيت فيه » وهو ابو تمام ، وقد اختلف النقاد في المفاضلة بين مقامات البديع ومقامات الحريري ولكل حججه والزاوية التي ينظر منها اليها ، ويقال ان الذي سبب للبديع تأليف مقاماته « هو أنه رأى ابا بكر بن الحسيني بن دريد قد

اغرب بأربعين حديثا ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره وانتخبها من معادن فكره على طبع العرب في الجاهلية » كما اختلف النقاد ايضا في مواقفهم ازاء مقامات الحريري وقد تجلى ذلك بأوضح اشكاله واعنفها واطرفها في موقف ابن الخشاب (النحوي البغدادي المتوفي عام ٥٦٨هـ) الذي كان شديد الوطأة على الحريري من جهة وفي موقف ابن برى (النحوي المصري المتوفي عام ٥٨٢هـ) الذي انبرى للدفاع عن الحريري وتسفيه حجج ابن الخشاب من جهة اخرى • ومساجلة النحويين المشار اليها بصدد مقامات الحريري تقتصر على الجوانب اللغويـة حيث خطأ الخشاب الحريري في مواضع عديدة من مقاماته وساق الادلة التي تثبت وجهة نظره في حين ان ابن برى فعل العكس من ذلك تماما وفند ادعاءات ابن الخشاب واستشهد بالأدلة التي تثبت صحة ما ادعاه • وبأمكان القارىء الذي يرغب في الاطلاع على تفاصيل هذه المساجلة التاريخية الطريفة الرجوع الى احد الكتابين

التالين (١) استدراكات ابن الخشاب على مقامات الحريري وانتصار علامة المقدس ابن برى لابن الحريري : مطبعة الشركة الطبعية بالاستانة ١٣٢٨هـ • (٢) شرح مقامات الحريري / دار التراث / بيروت / ١٩٦٨ ص٦١٣ ـــ ٦٣٦) • وهذه امثلة من تلك المساجلة التي يبدو فيها تهافت حجج ابن الخشاب •

بصدد المقامة الأولى الصنعانية قول الحريري خاوى الوفاض • الوفاض جمع الوفضة التي هي الجعبة • قال ابن الخشاب : « فاستعارها الحريري للمزود لأنه يريد عدم الزاد • والزاد لايكون في الجعبة واساء باستعمال الجمع استعمال الواحد لان الموضع لايقتضي الجمع وانما يقتضي المفرد أو هو المعول عليه • أترى أنه اذا فسر صار « خاوى الجعاب ولامعنى للتكثير ههنا » وقال ابن برى في رده « انكار ابن الخشاب على ابن الحريري في قوله خاوى الوفاض هو بعينه في كلام النبي صلى الله عليه تعالى وسلم على ماروته الثقات عنه وهو أنه صلى

الله عليه وسلم أمر بصدقة ان تجعل في الأوفاض • قال، الفراء في تفسير الحديث على ما رواه الهروى عنه • الاوفاض هم الذين مع كل واحد منهم وفضة يلقي فيها طعامه وهي مثل الكنانة الصغيرة • فهذا نص من الفراء على ان الوفضة تكون التي تجعل فيها الزاد • وتكون الكنانة التي تجعل فيها السهام • ولابد في الحديث من حذف مضاف تقديره : أمرأن تجعل الصدقة في ذوي الاوفاض أو أهل الأوفاض ثم حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه على حد قوله سبحانه « وسل القرية اي اهل القرية » • وقد نص ابن السيرافي على ان الوفاض جمع الوفضة التي يجعل فيها الزاد وذلك عند شرحه بيت الكتاب وهو :ـ

فبينا نحن نرقبه أتانا　　　معلق وفضة وزناد راع

قال ابن السيرافي الوفضة في البيت مثل الخريطة تكون للفقراء يجعلون فيها ازوادهم ••• واما قول ابن الخشاب« واساء ابن الحريري في استعمال الجمع استعمال

الواحد لان الموضع لايقتضي الجمع وانما يقتضي الافراد والمعنى عليه .. يعني ان ابن الحريري استعمل الوفاض موضع الوفضة فهو تحكم منه ـ اعني قوله لأن الموضع لايقتضي الجمع ـ ألا ترى أنه يجوز ان تكون معه وفضة فيها كعك ووفضة فيها سويق ووفضة فيها تمر او دقيق فمن اين قطع على انه لم يكن معه إلاوفضة واحدة .. واظن انه انما حكم بان الموضع يقتضي الافراد من جهة انه قال بعد هذا ولا اجد في جرابي مضغة . وليس في هذا دليل على أنه اراد جرابا واحدا . بل يجوز ان يريد به الجمع كما يقول القائل ـ اذا مدح انسانا ـ ليس في ازاره فضل وفي ثوبه خرق ولا في انائه صدع ولا في حاجبيه منع . فيأتي اللفظ على الافراد ولايمتنع ان يراد به الجمع . ألا ترى أنه ليس بلازم ان يكون ازارا واحدا ولا ثوبا واحدا ولا اناءا واحدا ولا حاجبا واحدا بل هذا اللفظ يطلق على الواحد وعلى الجمع وعلى ذلك قول ابن خياط العكلي :ـ

وكل قوم اطاعوا أمر سيدهم إلا نميراً اطاعت أمر غاويها

ومما روى امر مرشدهم وليس يريد سيدا واحدا
ولا غاويا واحدا وانما يريد كل سيد لهم وكل غاو لهم
ومما اوقع فيه موضع الجمع قوله سبحانه وتعالى : في
جنات ونهر • يريد وانهار • وقوله سبحانه : وعلى سمعهم
وعلى ابصارهم •• أي وعلى اسماعهم وانشد سيبويه :

بهاجيف الحسرى فأما عظامها فبيض واما جلدها فصليب

يريد واما جلودها وانشد ايضا في حلقكم عظم وقد
اشجينا أي اراد في حلوقكم وانشـــد أيضا ••

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فأن زمانكم زمن خميص

اراد في بعض بطونكم • ومن هذا ايضا قول قيس بن
الخطيم :

أتعرف رسما كالطراد المذهب
لعمرة وحشا عن مواقف راكب
ديار التي كادت ونحن على منى
تحل بنا لولا نجاء الركائب

فأوقع رسما موقع رسوم بدلاله أنه أبدل منه ديارا وهي جمع .

وبصدد المقامة الحادية والعشرين : الرازية كتب الخشاب معلقا على قول الحريري « فلما حللت بالري وقد حللت حي الغي وعرفت الحي من اللي » فقال « نص أهل اللغة على ان قولهم فلان لا يعرف الحي من اللي وما جرى مجراه من قولهم فلان لايعرف هراً من برمن الالفاظ التي لاتستعمل إلا في الجهد ولا يجوز أن تستعمل في الايجاب . فكما لو قال هو يعرف الهر من البر لم يجز . وكذلك عرفت الحي من اللي . وهو مشهور في كتب اللغويين ذكره ابن السكيت في كتابه

الالفاظ والاصلاح . وذكره ابو عبيدة في الامثال وغيره . ونظير هذا الباب باب أحد وعريب ودبي وطؤدى ووابس ودابر وما جرى مجراها لايستعمل إلا في النفي واضرابها على الايجاب خطأ وترك لاستعمالهم . ومعنى الحي من اللي . لايعرف الحق من الباطل . واجاب ابن برى على ذلك بقوله « كلام ابن الحريري صحيح لأنه اراد معرفة التفسير لهاتين اللفظتين وهما الحي واللي . والحي ـ الكلام الظاهر . واللي ـ الكلام الخفي . أي عرفت بين الكلام من خفيه من قولهم ما يعرف الحي من اللي . وكذا لو قيل فلان يعرف الهر من البر بمعنى يعرف تفسيرها كان جائزا «ألا ترى أنه اذا قال قائل والله مايعرف فلان الحي من اللي ولا الهر من البر ولا القبيل من البرير فأردت تكذيبه قلت والله ليعرف الحي من اللي ويعرف الهر من البر ويعرف القبيل من البرير . أي يعرف معاني هذه الالفاظ المستعملة في النفي . وكتب ابن الخشاب معلقا على المقامة

الثالثة والثلاثين التفليسية « بصدد قول الحريـري » عاهدت الله يفعت فقال « المعروف ايفعت • يقال ايفـع الغلام فهو يافع • وابقل المكان فهو باقل واورس الرامث فهو وارس • وجعل اهل العربية خروج اسم الفاعل في هذه الالفاظ على غير فعله نادراً • وقال ابن برى يفعت لغة في ايفعت حكاها ابن القطاع وابن القرطبة وابـن طريف • وكذا حكوا أبقل المكان وبقل وأدرس الرمث ودرس عن العرب • والاكثر ايفع وابقل وادرس • فاذا ثبت سماع الكل عن العرب لم يكن لمن انكرها عذر • وانما اختارها ابن الحريري هنا لتوافق قد يفعت سجعتها وهي ما استطعت في وزنها فضرورة السجع حملته على استعمال اقل اللغتين • وبصدد قول الحريري في المقامه نفسها « فنهضت اسلك منهاجه واقفوا ادراجه » كتب ابن الخشاب » رجع فلان ادراجه اذا رجع في الطريق الذي جاء منه • فما سرت في أدراج فلان أو قصـدت أدراج فـلان فليس مـن مستعمـل كلامهـم « وقال ابـن

بري » الدرج الطريق : يقال دخل درج الضب • اي طريقه الذي يدرج فيه • ومنه قولهم • هو مني درج السيل • وكذا ادراج السيول • وادراج الرياح لطرقها وليس الدرج بمنزلة القهقرى • في نحو قولك مشى القهقرى ورجع القهقرى • وانما فهم من قولهم رجع ادراجه انه رجع في الطريق الذي جاء منه من جهة رجع لا من جهة الدرج • ولو كان الدرج بمعنى القهقرى لم يصح ان يقال درج السيل لان السيل لايسير القهقرى • وايضا فان القهقرى مصدر لا مكان فيصح هذا المعنى في المصادر لا في الامكنة • ولو كانت الادراج لاتستعمل إلا مع رجع لكان الامر كما ذهب اليه هذا القائل • ولكن قولهم دخل درج الضب وهو بمعنى درج السيل يبطل ما ذكره ويثبت ان الدرج اسم لكل طريق يدرج منه • فعلى هذا لاينكر قصدت ادراجه أي طرقه» وبصدد المقامة الخامسة والثلاثين : الشيرازية كتب ابن الخشاب معلقا على قول الحريري « تاملت الشيخ على سهومة محياه

وسهوكة رياه فاذا هو اياه » فقال « العجب لابي محمد القاسم ـ وهو بصري ـ ان يستعمل ما قد اجمع اهل بلده على أنه لحن سيما رئيسهم سيبويه » وهذه المسألة المشهورة التي جرت بين سيبويه والكسائي حين قدوم سيبويه بغداد في مجلس يحى بن خالد البرمكي • والمسألة هي •• « كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فأذا هو إياه » وقال لايجوز الا « فاذا هو هي » واجازه الكسائي وهي لحن لامحالة • ورد على ذلك ابن برى بقوله ذكر ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحق والزجاجي ان ابا زيد الانصارى حكى عن العرب « كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هو إياها » قال ابو القاسم الزجاجي «فاما ان يكون سيبويه بلغتههذه اللغة فلم يقبلها ولاعرج عليها لشذوذها واما 'ن تكون لم تبلغه فأنكرها» فقد ثبت بهذا صحتها عن عالم من اجل علماء البصرة وهو ابو زيد الانصارى ـ وهو من جملة من اخذ عنه سيبويه • فلا انكار على ابن الحريري

اذن ان يوافق احد علماء بلده على صحة سماعها وان كانت شاذة في قياس العربية وفي موضع آخر من المقامة نفسها كتب ابن الخشاب بصدد قول الحريري « ثم ودعني وانطلق وزودني ظرة من ذي علق » ما نصه « هذا يعطي خلاف المقصود لأن قولهم « ظرة من ذي علق » فسره اللغويون فقالوا « معناه ظرة من ذي هوى قد علق من يهواه بقلبه قال الاصمعي « ظرة من ذي علق يضرب للرجل يرى الشيء يحبه فيجتزى عن معرفته بالقليل ، ورد ابن برى على ذلك بقوله المعنى الذي اراده ابن الحريري صحيح لأنه اراد أنه اودع قلبي حرقا لم يكن فيه وذلك بسبب مفارقته التي اوحت له ان صار ذا ظرة من ذى هوى لمن فارقه . ولو كان المعنى على ما قاله ابن الخشاب لكان الصواب ان يقول وزودته ظرة من ذى هوى ولم يقل وزودني . ومثل هذا لا يخفى على ابن الحريري[1] .

---

١ ـ تلك فقرات عابرة من المساجلة الطريفة بين الخشاب وابن برى سقناها على سبيل التمثيل لاعلى سبيل

أنشأ الحريري خمسين مقامة ــ شرحها كثير من الادباء ــ مقتفيا فيها اثر البديع وقد جعل بطلها ابا زيد السروجي (كنظيره ابي الفتح الاسكندري عند الهمذاني) واسند روايتها الى الحارث بن همام (على نسق عيسى بن هشام عند البديع) . وقد وضع الحريري اولى مقاماته ــ على ما يقول الرواة ــ عام ١١٠١ (٤٩٥هـ) وانجز آخرها عام ١١١٠ (٥٠٤هـ) واسند روايتها كما ذكرنا الى الحارث بن همام وهو شخصية رمزية من ذوي اليسار وممن يتذوقون الادب وكان الحارث بن همام

الحصر لولا الاستطراد لذكرنا فقرات اخرى كثيرة وطريفة تدل على سعة الاطلاع وعلى اتساع اللغة العربية وعلى الذوق الرفيع في تبادل الاراء رغم اختلافها الشديد الذي يبلغ درجة التباين احيانا .
ولا يسعنا في هذه المناسبة الا نهيب بالمعنيين بدراسة الحريري بصورة خاصة وبالعلوم اللغوية على وجه العموم الرجوع الى النصوص في الكتابين المشار اليهما في المتن .

تتنقل في ارجاء الخلاف العربية الاسلامية للتزود بالمعرفة وهو يتصف بنفس ابية ويترفع عن المسالك المشينة •
اما بطل المقامات فهو ابو زيد السروجي وهو ايضا شخصية يقال انها ليست رمزية من الادباء ـ الفقراء وله قدرة عجيبة على التلون وابتزاز الاموال عن طريق المكر بالوسائل الادبية المترفة •

ومقامات الحريري هذه مفعمة بالاحاجي اللغوية والالغاز الفقهية والنوادر الاجتماعية والامثال والحكم • وهي بنظرنا اكثر دقة ورقة وشعبية من مقامات الهمذاني : فجاءت مقامات الحريري احفل واجزل واكمل كما يقول الشريشي •

ترى لماذا اختار الحريري (الحارث بن همام) رواية لمقاماته وجعل (ابا زيد السروجي) بطلها ؟ اختلف الرواة في شأن ابي زيد واجمعوا على ان الحارث والهمام من الاسماء الصادقة واوردوا حديثا نبويا شريفاً مفاده ان كل شخص (يحرث) اي يحاول الكسب وهو همام لانه

يهم بحاجته • وان الحريري يقصد بذلك نفسه وقد جعل الحارث بن همام بصريا ايضا زيادة في التأكيد • امـا (ابو زيد) فقد اكد القاضي ابو الحسن على بن يوسف الشيباني في كتابه الذي سماه إنباء الرواة على أنباء النحاة ـ على ماروى إبن خلكان ـ انه نحوي لغوي بصري اسمه المطهر بن سلار من اصحاب الحريري ومريديه •

وقال آخرون انه كنية للكبر وذلك لان العرب ـ تسمي الشيخ الهـرم ابا زيد وابا سعيد • وقال غيرهم انه كنية للدهر لأن الحريري يصف (ابا زيد بأوصاف لاتليق إلا بالدهر المتقلب) • وذكر الشيخ الثقة ابو بكر عبدالله بن محمد بن احمد بن النقور البزاز عن الحريري قوله ـ على ماروى الشريشي ح ١ ص١٦ ـ ١٧ ـ انه « ابا زيد السروجـي (كان شيخا) بليغا ومكديا فصيحا ورد علينا البصرة وقد توقف يوما في مسجد بني حرام يتكلم ويسأل الناس شيئا • وذكر أسر الروم ابنته ـ كما ذكرنا في المقامة الحرامية وهي الثامنة والاربعون •

ويستطرد الحريري ويقول « فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من معارف فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدته من ذلك السائل .. فحكى كل واحد من جلسائي أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت وأنه سمع في معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت وأنه كان يغير في كل مسجد زيه وشكله ويظهر في فنون احتياله . فعجبوا من جريانه في ميدانه وافتنانه في احسانه . فابتدأت في انشاء المقامة الحرامية تلك الليلة حاذيا حذوه فلما فرغت منها اقرأتها جماعة من الاعيان فاستحسنوها غاية الاستحسان واقترحوا علي اخواتها والله المستعان » . واشتهرت تلك المقامة فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله فلما وقف عليها اعجبته فأشار على الحريري ان يضم اليها غيرها ففعل . وقد اختلف الرواة في وزير المسترشد هذا لأن المسترشد استوزر كلا من جمال الدين عميد الدولة بن الحسن بن ابي معر علي بن صدقة وشرف الدين ابي شروان محمد بن خالد بن محمد

القاشاني . وابن خلكان يرجح الاول منهما لأنه وجد في القاهرة نسخة من المقامات بخط الحريري وقد كتب على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين بن صدقة . ومهما يكن من امر أبي السروجي فأنه ايضا تقمص شخصية الحريري من بعض الوجوه .. معرفته اللغوية الواسعة واسلوبه الممتع في التعبير واطلاعه الواسع على الشؤون العامة وقدرته الفذة على التغلغل في سايكولوجيا الفئآت الاجتماعية آنذاك . اما تلون ابـي زيـد او سلوكـه المذبذب ـ المتدني بالمقاييس الاجتماعية الرفيعة في ذلك الزمان وفي الوقت الحاضر ايضا ـ فيعبر بصدق عن رغبة الحريري في اثارة مشاعر المقت والشجب عند الناس ازاء ذلك السلوك وفي استثارة هممهم للترفع عن الأنزلاق الى منحدره . وهذا واضح بالطبع في مواقف الحارث بن همام الذي تقمص شخصية الحريري كما ذكرنا . لقد حصل اول لقاء بين الرجلين في صنعاء وهما في مقتبل العمر أو ريعان الشباب عندما التقى الحارث بن همام

بابي زيد السروجي واعظا في احــد المساجد واكتشف
خداعه • ثم اخذ الحارث يجوب الامصار ويقطع المسافات
الواسعة ويلتقي كل مرة بالسروجي وهو يمارس مهنة
كلامية معينة ويتزيا بزي جديد ويستخدم ضروب المكر
وهكذا صعوداً الى المقامة التاسعة والاربعين عندماتجاوزا
مرحلة الشباب والتقيا آخر مرة في احد مساجد البصرة
حيث بدأ السروجي باعلان التوبة والرجوع الى الله •
ثم تنقطع اخبار السروجي بعد ان غادر البصرة فبدأ
الحارث يستقصي اخباره فيعلم انه عاد الى بلدته سروج
بعد ان فارقها العلوج وقد لبس الصوف وام الصفوف
وصار بها الواعظ الموصوف • ويلقي الحارث بدوره
عصا الترحال في البصرة ولسان حاله يقول :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى

كما قر عينا بالأياب المسافر

كان الحريري في مقاماته مفتونا بالحركة الصاعدة الديناميكية • وقد احتل التنقل الزماني والمكاني مركزا مرموقا في مقاماته • كما كان الحريري مولعا ايضا بتوجيه تلك الحركة الصاعدة الحيوية المتطورة المتعددة الاشكال التي تظهر في سلوك الحارث بن همام وزميله ابي زيد السروجي والسيطرة عليها في تفاصيلها وفي مجراها العام • وقد ظهر الانسان اثناءها (ممثلا بالحارث بن همام تارة وبأبي السروجي تارة اخرى) ــ مع تناقض في السلوك بين الشر والخير او بين الواقع الفاسد الذي يعبر عنه السروجي وبين ما ينبغي ان تكون الحياة عليه كما يبدو ذلك عند الحارث بن همام) ــ اقول وقد ظهر الانسان اثناء تلك الحركة كأنه جزء لايتجزأ من تلك الحركة التي تمثل حالة المجتمع آنذاك • وهذا يعني بعبارة اخرى ان الحريري الذي تقمص شخصية الحارث بن همام كان يسعى بشكل لايعرف الكلل او اللين او المهادنة لجعل الانسان او الفرد يحتل مكانته المرموقة

اللائقة به بسعيه الحثيث لاستئصال مفاسد المجتمع التي تبدو مجسدة في سلوك ابي زيد السروجي • وكان الحريري ـ في ذلك كله ـ منغمرا كل الانغمار في ابراز الرابطة العضوية الديالكتيكية غير القابلة للانفصام بين مطمح الفرد نحو التحرر والانعتاق والتقدم وبين الواقع الفاسد الذي يعيش فيه • وهذا يعني بعبارة اخرى ان الحريري كان مولعا الى درجة الافراط بالحركة الديناميكية الصاعدة للحياة والمجتمع والفرد نحو المستقبل الأفضل • وكان بطلاه الرمزيان (الحارث بن همام) و (ابو زيد السروجي) يظهران دائما وابدا في حركة دائبة متواصلة في كل مقامة من المقامات الخمسين وفي كل فقرة من فقراتها • وكل مقامة من تلك المقامات كانت في حقيقتها كيانا واحدا متماسكا ديناميكيا متدفقا صاعدا كما كانت المقامات كلها كيانا واحدا متماسكا صاعدا ايضا •

الحريري وعصر النهضة الاوربية :

وفي مقامات الحريري تتجلى النزعة الانسانية ممثلة ببطله الحارث بن همام الذي كان يسعى دائما وابدا الى التغلب على مفاسد المجتمع المتجسدة في سلوك ابي زيد السروجي . وهناك على ما ارى اوجه شبه كبيرة وكثيرة بين الحريري ـ من هذه الناحية ـ وبين ادباء عصر النهضة الاوربية وفنانيها في ايطالية بصورة خاصة بالدرجة الاولى وفي الاقطار الاوربية الأخرى اثناء القرون الوسطى وذلك لتشابه الظروف الاجتماعية العامة على وجه العموم مع مراعاة اختلاف المميزات المحلية الخاصة . وباستطاعة الباحثين عندنا المتخصصين بالأدب والتاريخ ان يكشفوا عن تفاصيل اوجه الشبه والاختلاف

بين المجتمعين (الايطالي والعربي الاسلامي) آنذاك وبين الادب في المجتمعين عند موازنة ما كتبه المؤرخون ـ العرب والمسلمون عن المجتمع العربي الاسلامي في القرن الحادي عشر وما كتبه ما كيافيلي في كتابه « الامير » بصدد الأوضاع المحلية في الولايات الايطالية آنذاك وبخاصة من ناحية الصراع بين دعاة الحق والعدالة الاجتماعية وبين الغارقين في الرذيلة الى الاذقان • هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الولايات الايطالية ودول الطوائف في مشرقنا العربي كانت اكثر تقدما في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية من الدول الأخرى المجاورة في القارتين الاوربية والآسيوية • وقد حصل ذلك بفعل مبدأ التطور غير المتناسق في نشوء الاقطار المعروفة آنذاك في فترة القرون الوسطى • فقد سبقت الولايات الايطالية الأقطار الاوربية الاخرى طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اقتصادياً واجتماعياً ومن الناحية الثقافية • اما جذور ذلك فتعود في الاصل

التاريخي الى القرن العاشر الميلادي عندما بدأت المدن الايطالية الكبرى المعروفة آنذاك بالتحرر من سيطرة الاقطاعيين المطلقة وفسحت المجال امام مجالس ادارية مؤلفة من الفئآت الاجتماعية التقدمية الصاعدة آنذاك (التجار وأرباب الصناعات) نجم عن ذلك تحول كبير في ممارسة السياسة والاقتصاد ومن الناحية الثقافية . وقد لعب التجار والمحامون والأطباء والمهندسون في المدن الايطالية الكبرى دورا بالغ الاهمية في حياة المجتمع وفي تطوره الثقافي وذلك لانهم كانوا يجمعون بين الألمام بمهمتهم وبين الاحاطة بالثقافة العالمية والاوربية المنتشرة في زمانهم . وقد رفع الحريري بطله الحارث بن همام الى ارفع مستويات الفضيلة ورفع ادباء عصر النهضة الاوربية وفنانوها ابطالهم الى اعلى المستويات المثالية الخيالية وأضفوا عليهم صفات البسالة والاريحية والشهامة والتضحية وجعلوهم كأنهم فوق البشر واعتبروهم رمزا للحق والعدالة الاجتماعية والانتصار لكرامة الانسان

المهدورة . وقد بدأ اولئك الابطال في تنافر مع اسس المجتمع الاقطاعي الذي عاشوا فيه وهذا التنافر هو ـ في جوهره ـ تعبير دقيق وامين عن طبيعة الظروف الاجتماعية السائدة . وقد ظهر البطل وكأنه يكافح من اجل اشاعة مثله الانسانية العليا بين الناس وتجسيدها بالفعل وهو بمعزل عن غيره وحيدا في الميدان يحارب في جبهتين احداهما على الصعيد الحكومي الرسمي ممثلا بالقضاة والامراء والوعاظ والاخرى متمثلة بالاشرار من عامة الناس . وكثيرا ما يلقى البطل مصرعه بفعل اعتداءات قوى الشر العاتية . ولهذا فان البطل مع اتصافه بالشجاعة النادرة ينهار في آخر المطاف ويعجز عن تحقيق الظفر المؤزر اثناء صراعه الشريف العادل وغير المتكافىء مع قوى الشر كما ظهر ذلك عند شكسبير في هاملت وعطيل . أما عند الحريري فقد ظهر ذلك ـ لعوامل محلية خاصة ـ في توبة ابي زيد وندمه على فرط منه وعودته الى الالتزام بمبادىء الدين الحنيف والى الاقامة

من جديد في بلدته سروج بعد ان فارقها العلوج ولسان حاله يقول مع شوقي على لسان المجنون :ـ

تركت ورائي الشام لم انتفع به

ولا هو من وجدى القديم شفائي

وعدت الى نجد أقاسي صبابتي

وشوقي كأني مابرحت مكاني

وهكذا يختتم الحريري مقاماته الخمسين بالعبارات التالية (في المقامة الخمسين / البصرية) على لسان الحارث بن همام في وصف مصر ابي زيد السروجي

« ثم ودعني وانطلق واودعني القلق . فلم ازل اعاني لاجله الفكر واتشوف الى خبره ماذكر . وكلما استنشيت خبره من الركبان وجوابة البلدان كنت كمن حاور عجماء او نادى صخرة صماء الى ان لقيت بعد تراخي الامد وتراقي الكمد ركبا قافلين من سفر فقلت هل من مغربة خبر ؟ فقالوا ان عندنا لخبرا اغرب من العنقاء واعجب من نظر الزرقاء . فسالتهم ايضاح ماقالوا وان يكيلوا بما اكتالوا . فحكوا انهم الموا بسروج بعد ان فارقها العلوج فراوا ابا زيدها المعروف وقد لبس الصوف وام الصفوف وصار بها الزاهد الموصوف » .

وهناك على ما ارى اوجه شبه كبيرة وكثيرة ايضا بين مقامات الحريري وبين الأدب الواقعي الاوربي في القرن التاسع عشر من جهة وبين الادب الواقعي الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي من جهة اخرى مع مراعاة الخصائص المحلية المختلفة وظروف المجتمع العربي الاسلامي في القرن الحادي عشر وظروف المجتمع الاوربي في القرن التاسع عشر في حالة الادب الواقعي الغربي من جهة وظروف مجتمع الحريري في القرن الحادي عشر الميلادي والمجتمع السوفيتي في هذا القرن الذي نعيش فيه من جهة اخرى .

لقد ندد الأدباء الواقعيون الغربيون (الأحرار الديمقراطيون) بالجوانب السلبية في مجتمعهم البرجوازي ونقدوه نقدا لاذعا في نواحي حياته المتعددة . ولعل شارلزديكنز (١٨١٢ ــ ١٨٧٠) الاديب البريطاني اللامع كان اغزرهم انتاجا واكثرهم شمولا وربما أعنفهم في هذا الباب . وقد رسم لنا هذا الاديب

الكبير صورا رائعة عن ماسي الحياة في المجتمع البريطاني الذي عاش فيه وأوضح بجلاء التباين الكبير في ظروف العيش بين الاقلية البريطانية المترفة (الطبقة الحاكمة) ذات الامتيازات السياسية والاقتصادية والثقافية الكبيرة والكثيرة من ناحية وبين الاغلبية الساحقة من السكان المحرومين من ابسط حقوقهم السياسية والاقتصادية والثقافية من ناحية اخرى • فصور لنا مثلا رداءة ظروف العمل في المصانع وجسد تعاسة احوال الاطفال في المياتم في روايته المعروفة « أوليفر تويست » وتحدث عن التفاوت الصارخ في فرص التعليم بين المواطنين في روايته المشهورة « نيكولاس نيكولبي » ووصف قضية الزواج وحياة الاسرة المتفسخة في المجتمع البريطاني آنذاك في روايته الذائعة الصيت « ديمبي والابن » وتكلم بمرارة عن العدالة الاجتماعية المهانة في المجتمع آنذاك وعن القانون المنتهك في روايته الممتعة « منزل بليك » وتناول بالنقد اللاذع والسخرية وبالتهكم جهاز الدولة القمعي في

عهده ووصف بأسهاب اداته القمعية المتسلطة على الشعب وبخاصـــة حياة السجون الرهيبة والرديئة في روايتــه الطريفة « وريت الصغير » • واسهب في وصف نظام المصانع الرديء وحالة العمال التعيسة في روايته المعروفة « اوقات عسيرة » •

تلك اهم جوانب الشبه بين مقامات الحريري وبين الادب الواقعي الغربي وبخاصة في القرن التاسع عشر في انكلتره بالذات ممثلا بادب جارلس دكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) الكاتب الانكليزي اللامع • وهناك ايضا اوجه شبه كثيرة وكبيرة بين المقامات وبين الادب الواقعي الاشتراكي الذي يرتبط باسم مكسيم غوركي (١٨٦٨ — ١٩٣٦) لانرى مسوغا لبحثها تفاديا للاستطراد •

وحدة الموضوع في المقامات

تتجلى وحدة موضوع المقامات ـ رغم تشعب محتوياتها في أنها تروي قصة تنقل ابي زيد السروجي بصورة مستمرة وتصف تطوافه منذ المقامة الاولى في ارجاء الوطن العربي الاسلامي بفعل اجتياح الغزاة الروم مسقط رأسه سروج . ثم عودته في آخر المطاف الى بلدته بعد ان رحل عنها الغزاة . كما تصف أيضا تطوافه المستمر بضروب السلوك النابي عن الذوق السليم وغير المنسجم مع المبادىء الاخلاقية السامية التي نادى بها الدين الحنيف . كما تصف نبذه في آخر الامر جميع تلك التصرفات وتمسكه بالخلق القويم . كما ورد ذلك في المقامة الخمسين / البصرية في الفقرات التي سبق ان ذكرناها . وهذا يعني بعبارة اخرى ان بامكاننا اعتبار المقامات ـ المتناثرة ـ من حيث محتواها او مضمونها

قصة او رواية بفصول متعددة تجمعها وحدة الموضوع ووحدة الهدف وأنها تتسم بالطابع الرمزي الذي لايعني هنا الجانب التجريدي المألوف • فالسروجي شخص رمزي ــ مع تعدد حالاته • وكذا الحال في الحارث بن همام مع وحدة سلوكه والتزامه الاجتماعي • وقد جمع الأول منهما ــ بشكل رومانتيكي جميع الصفات غير المستساغة التي يتصف بها اشخاص متعددون في مختلف مشارب الحياة ، وجمع الثاني بين نقيضهما •

يبدو أن ولع الحريري بأسلوب التعبير وبراعته اللغوية الفائقة وقدرته العجيبة على التلاعب بالالفاظ وغزارة مفرداته اللغوية طغت جميعها على محتوى آرائه الاجتماعية البالغة الاهمية بنظرنا وحجبت ذلك المحتوى (الاجتماعي والسايكولوجي العميق) عن انظار القراء وعن انظار شارحي المقامات (وهم ادباء في الاصل) على حد سواء فأسدلت على ذلك المضمون (الذي هو في الاساس الغرض الذي يسعى الحريري نحو تحقيقه)

غطاء كثيفا من التعابير الرقيقة المترفة الأنيقة بحيث اصبح الغطاء اللغوي الكثيف يبدو للسطحيين كأنه الذي يرمي الحريري اليه • ويلوح ايضاً بنظري ان براعة الحريري اللغوية التي استلزمتها ظروف مجتمعه آنذاك ــ هي التي دفعته الى استخدام الفاظ نابية (بمقاييسه ومقاييس غيره ايضا) في بعض مقاماته (وقد اعتذر عن ذلك في خاتمة المقامات كما سنرى) • ويبدو أن غرضه الرئيس هو التعبير عن تضلعه باللغة ورده الضمني على الذين يزعمون بأن المتضلعين في اللغة قد انتهى امرهم في القرن العاشر ولم يحل محلهم احد (كما ورد ذلك في المقامة السادسة / المراغية) • وظاهرة العزل بين المحتوى والمضمون وبين الشكل أو أسلوب التعبير ظاهرة معروفة وسائدة في الأدب والفن على وجه العموم • وقد تركز حولها الجدل وتعددت في تفسير طبيعتها وجهات النظر في ترجيح أحد عنصري الادب والفن (المتلاحمين) على زميله دون مسوغ معقول •

وهذه الظاهرة بالذات هي التي جعلت فريقا من المعنيين بدراسة هذه الظاهرة نفسها (والظواهر الاخرى المماثلة في الادب والفن) يفصلون ـ دون وجه حق ـ بين ما يسمونه الجانب الفكري للكاتب والفنان (محتوى ادبه وفنه) فصلا تاما ومطلقا من جهة وبين جانبه الجمالي او الفني (اسلوبه في التعبير من جهة اخرى) • والبحث في هذه القضية يقع خارج نطاق هذه الدراسة •

شخصية الحريري في مقاماته :

لقد تجلى الحريري في مقاماته شهما جوادا اريحيا مترفعا عن تعاطي كل ما يشين الرجال • كما ظهرت ذلك في تصرفات الحارث بن همام الذي تقمص شخصيته • وهذا يظهر بنظري حتى في وصفه الانيق للخمرة مثلا وفي المواقف التي يبدو فيها كأنه معتكف على تعاطيها بشكل مدمن ومباشر كما ظهر ذلك في تصرفات السروجي • فقا كان الحريري في ذلك كله مفتونا ـ كما ذكرت ـ بالتعابير اللغوية الأنيقة والالفاظ المترفة

وبالوصف الادبي البرىء لا بالممارسة • وتلك حالة ليست بالغريبة على الأدباء والفنانين والشعراء القدامى والمحدثين في الغرب وفي عالمنا العربي على حد سواء • فقد تغنى راباليي (١٤٩٥ ـ ١٥٥٣) الكاتب الفرنسي في وصف النبيذ واطنب في اظهار محاسنه واطرى عليه دون أن يذوق طعمه على ما يقول بلزاك (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠) • ويجري هذا المجرى ـ على ما نظن ـ استخدام الحريري الفاظا نابية على لسان السروجي في مناسبات متعددة كما ورد ذلك مثلا في المقامة العشرين الفارقية وفي المقامة الثانية والعشرين الصورية وفي المقامة السادسة والاربعين / الحلبية • آمن الحريري بالانسان ودعا الى تحرره من جميع القيود اللاانسانية المفروضة عليه بالقسر ليمارس حريته المسؤولة على الوجه الافضل ويشعر بكرامته ويؤدي نصيبه في خدمة المجتمع • وندد الحريري ـ من الجهة الثانية ـ بالظلم والاضطهاد بمختلف صوره وتعدد درجاته وقد

انساب ذلك كله ضمنيا في جميع مقاماته وعبر عن نفسه بصراحة ووضوح في المقامة التاسعة والاربعين المقامة الساسانية . « ومتى نبا بك بلد ، أو نابك فيه كمد فبت منه أملك واسرح منه جملك . فخير البلاد ما جملك » . ودعوته هذه ينبغي ــ بنظرنا ــ ألا تفسر بأنها تتنافر مع الوطنية والانتماء لأن التنقل المعبر عنه هنا يجري ــ كما تدل القرينة التاريخية عليه ــ داخل الارض العربية الاسلامية الشاسعة نفسها لا خارجها او على حسابها . وقد لوحظ ذلك ايضا بالفعل في تنقل ابي زيد السروجي نفسه . كما آمن الحريري ايضا بالعلم ومجده واطرى على حملته وحث الناس على طلبه ودعا الى تجشم الصعاب من اجل الحصول عليه اينما وجد . وقد ورد ذلك ضمنيا في جميع المقامات على لسان الحارث بن همام وورد صراحة في مستهل المقامة التاسعة : المقامة الاسكندرية واتضح بأجلى صوره في المقامة الثانية والاربعين المقامة النجرانية . حكى الحارث بن همام

قال « ترامت بي مرامي النوى ومساري الهوى الى أن صرت ابن كل تربة واخا كل غربة • إلا اني لم اكن اقطع واديا ولا اشهد ناديا الا لاقتباس الادب المسلي عن الاشجان المعلى قيمة الانسان » •

ولكي نجعل محتوى مقامات الحريري وموقف صاحبها منها (قبل ان نتناولها بالتحليل والتعليق) نرى ان ننقل القارىء الى موجز ما اورده الحريري نفسه في ديباجتها وفي الخاتمة ، جاء في الديباجة :

«اللهم إنا نحمدك على ما علّمت من البيان والهمت من التبيان » • ونستوهب منك توفيقا قائدا الى الرشد وقلبا متقلبا مع الحق •• ولسانا متحليا بالصدق ونطقا مؤيدا بالحجة واصابة ذائدة عن الزيغ ••• وان تسعدنا بالهداية الى الدراية وتعضدنا بالاعانة على الأبانة وتعصمنا عن الغواية في الرواية وتصرفنا عن السفاهة في الفكاهة •••• وبعد فأنه قد جرى ببعض اندية الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه ذكر

المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها • وكلاهما مجهول لايعرف ونكرة لاتتعرف(١) •• فأشار من اشارته حكم وطاعته غنم إلي ان انشيء مقامات اتلو فيها تلو البديع وان لم يدرك الظالع شأو الضليع • فذاكرته بما قيل فيمن الف بين كلمتين ونظم بيتا او بيتين • واستقلت من هذا المقام الذي فيه يحار الفهم ويفرط الوهم ويسبر غور العقل وتبين قيمة المرء في الفضل ويضطر صاحبه الى ان يكون كحاطب ليل او

---

١ ـ ذائدة : دافعة . الزيغ ـ الميل : زاغ عن الحق ـ مال عنه الى الباطل . الدراية ـ مصدر دريت الشيء ـ علمته تعضدنا ـ تقوينا . الابانة ـ مصدر ابنت الشيء ـ بينته . تعصمنا من الغواية تمنعنا من الضلالة والفساد الرواية ـ نقل الحديث عن صاحبه الى طالبه . تصرفنا ـ تزيلنا السفاهة ـ الجهل . عزا ـ نسب . نشأتها صنعتها . روايتها اسناد احاديثها .

جالب رجل وخيل[٢] فلما لم يسعف بالاقالة ولا أعفى من المقالة لبيت دعوته تلبية المطيع وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع وانشأت ـ على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة ـ خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله

---

٢ ـ قيل الذي اشار اليه بها المسترشد بالله الخليفة العباسي . وقيل وزيره جمال الدين عميد الدولة وقيل ايضا وزيره الآخر . شرف الدين انوشروان خالد بن محمد القاشاني .

الضالع ـ الاعرج . الضليع ـ القوي . « فذاكرته بما قيل فيمن الف بين كلمتين ونظم بيتا او بيتين : قال ابو عمرو بن العلا : الانسان في فسحة من عقله وفي سلامة من افواه الناس مالم يضع كتابا او يقول شعرا . استقلت طلبت الاقامة . المقام ـ موضع القدمين وانت قائم . يحار = يتحير . يفرط = يسبق الوهم = الغلط يسبر غور العقل = يختبر قدره . تبين = نتبين حاطب ليل = جامع الحطب بالظلام : حاطب الليل لايبصر مايحتطب . جالب رجل وخيل = اراد بذلك مااراد بحاطب الليل . لان الراجل ضعيف والفارس قوي .

وغرر البيان ودرره وملح الادب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية(٣) • والاحاجي النحويـــة

---

٣ ـ يسعف = يؤتي وينيل الرغبة . اعفى = ازال عن المرء مايشق عليه . واصله الترك . اعانيه = اعالجه واصلها من العناء وهو التعب . قريحه = ذهن .
واصلها من العناء وهو التعب . قريحه = ذهن .
خامدة = ساكنة . خمد النار = يسكن لهيبها . روية = تدبر . ناضبة = جافة : نضب الماء = غار في الارض . ناضبة = متعبة . نصب نصبا = اعيا من التعب . جزله = غليظه ومتينه . غرر = جمع غرة وهي خيار الشيء ومنـه غرة الفرس وهو البياض في جبينه . درره = جمع درة وهي الجوهرة العظيمة ملح = جمع ملحة وهي مليح الكلام . نوادره = غرائبه . وشحتها = زينتها . الكنايات = ضرب من الالغاز واصل الكناية ان تذكر الشيء بغير لفظه اما للايهام على جليسك او لتعظيم او لتحقير . رصعته = نظمته والصقت بعضه ببعض = تاج مرصع اي مزين بخرز وجوهر ينظم فيه . اللطائف = الرقائق . الكلمات اللطيفة اي الرقيقة المعنى .

والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية مما امليت جميعه على لسان ابي زيد السروجي واسندت روايته الى الحارث بن همام البصري • وما قصدت بالأحماض فيه الا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه • ولم اودعه من الاشعار الأجنبية الا بيتين فذين اسست عليهما بنية المقامة الحلوانية وآخرين توأمين ضمنتها المقامة الكرجية • وما عدا ذلك فخاطرى أبو عذره ومقتضب حلوه ومره • هذا مع اعترافي بأن البديع سباق غايات وصاحب آيات وان المتصدي بعده لأنشاء مقامة[5] ولو

---

٥ ـ الاحاجي = ضرب من الالغاز . واحدتها احجية وهي من الحجى وهو العقل . الفتاوى اللغوية = اراد بها المسائل المئة الواردة في المقامة الثانية والثلاثين . الفتيا = اظهار الشيء المسئول عنه عند السؤال . المبتكرة = التي لم يسبق اليها . المحبرة = المزينة . امليت على الصبي = القيت عليه ما يكتب . اسندت = رفعت . الاحماض = الانتقال من شيء الى شيء اراد به تنقله في المقامات من

أوتي بلاغة قدامة ـ لايعترف إلا من فضالته ولايسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . وأرجو ألا اكون في هذا الهذر الذي اوردته والمورد الذي توردته كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه ... ثم اذا كانت الاعمال بالنيات .. فأي حرج على من أنشأ ملحا للتنبيه لا للتمويه ونحابها منحى التهذيب لا الاكاذيب ..



حكاية فائقة الى قصة رائقة ومن موعظة تبكي الى ملهنية تسلي وفي ذلك تنشيط وترغيب في قراءتها . اودعته = اضمنته الاجنبية = التي ليست من شعر الحريري نفسه . فذين = منفردين هذا من شعر وهذا من آخر . توامين = من شعر واحد . خاطري = ذهني . ابو عذره = اول سابع له . يقال للمراة فلان ابو عذرها اي اول زوج تزوجها فوجدها عذراء . مقتضب = مقتطع . حلوة ومرة = جيدة ورديئة .

على أنني راض بأن احمل الهوى

واخلص منه لا على ولا ليا[٦]

ذلك هو موجز ديباجة الحريري الذي تناول فيه اموراً كثيرة لايستلزم اغلبها أي تعليق او توضيح • والامور المشار اليها تتصف على ما ارى بالدقة والامانة

---

٦ ـ قدامة هو ابو الوليد بن جعفر الاديب المشهور الذي سار المثل ببلاغته . الفضالة = البقية من الماء وغيره وهي مافضل عن الحاجة . اغترفها = اخذها بيده . « يسرى ذلك المسرى » اي يقصد ذلك القصد . واصل يسرى يسير بالليل دلالته بتقدمه وهوايته (تفتح دالها وتكسر والفتح اكثر) الهذر = الاكثار . توردته = افتتحته . الباحث = المفتش . الجادع = القاطع الانف . المارن = طرف الانف (واراد به قصيرا مولى جذيمة الابرش في قصته المشهورة) حرج = اثم . التهذيب = التخليص من العيوب . المنحى = القصد . وفحوى البيت ان الحريري رضي ان يخلص ممن يتكلم في كتابه بتعيب وان يخرج من هذا الكتاب كفافا لااجر ولاعذر .

وبحسن القصد او سلامة النية . كما تتصف ايضا بالتعبير الضمني عن سعة الاطلاع والبراعة اللغوية . ويتجلى فيها تواضع الحريري بالنسبة لبديع الزمان . واختتم الحريري مقاماته بالعبارات التالية « هذا آخر المقامات انشأتها بالاغترار وأمليتها بلسان الاضطرار . وقد الجئت الى ان ارصدتها للاستعراض وناديت عليها في سوق الاعتراض . هذا مع معرفتي بأنها من سقط المتاع ومما يستوجب ان يباع ولا يبتاع . ولو غشني نور التوفيق ونظرت لنفسي نظر الشفيق لسترت عواري الذي لم يزل مستورا ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورا . واني استغفر الله تعالى مما اودعتها من اباطيل اللغو واضاليل اللهو »[1] . تلك عبارات امينة ودقيقة

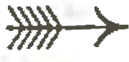
---

١ ــ الاغترار = الجهل مع دعوى العلم . امليتها = القيتها لمن يكتبها او من ينقلها . الاضطرار = القهر . الجات = الزمت . ارصدتها = عرضتها واعددتها . الاستعراض = عرضها على الناس . سقط المتاع = ادنى الامتعة كناية عن كونها عقيمة الفائدة . غشيني = ادركني وسترني . اللغو =

تكشف بما لا يقبل الجدل او الشك عن نقـيـة صاحبها التي تجنح نحو الصدق وتنزع الى الحق • وهي تكشف ايضا عـن تواضع الرجل امام سلفه البديع رغم مكانتـه الادبية المرموقة وبراعته اللغوية التي تكاد لاتبارى • كما انها ترمي ـ على حد قوله ـ نحو التنبيه لا التمويه وينحو بها صاحبهـا منحـى التهذيب لا (الاكاذيب) وتنطوي على جد القول وهزله وهو يستغفر الله مما اودعها من اباطيل اللغو واضاليل اللهو •

يمكننا لغرض التبسيط والأيجاز ـ ان نقسـم المقامات الى ثلاث فئآت من ناحية المحتوى ومن حيث اسلوب العرض • هذه الفئات هي :

اولا ـ الفئة التي حلق فيها الحريري مع اختلاف في درجة التحليق ومع اختلاف في الطول والقصر • وهي



الكلام الساقط المديم الجدوى . اضاليل = جمـع اضلولة وهو مايخـل به من ارتكبه .

ثلاثون مقامة : المقامة السادسة المراغية وتسمى ايضا الخيفاء وهي تتضمن الرسالة الى احدى كلماتها معجمة والاخرى مهملة او غير معجمة • والمقامة الثانية والعشرون : الفراتيــة وتتضمن الموازنة بين الكتابتين : الانشــاء والحســاب • المقامة الثالثة والعشرون : الشعرية او الحريمية التي يدعي ابو زيد فيها ان غلامه سرق شعره • المقامــة الحادية والثلاثون الرملية وفيها وعظ ابي زيد للحجاج في حــال مسيرهم • المقامــة السابعــة والثلاثون : الصعدية وفيها مخاصمته ابي زيد ابنه عند القاضي لعقوقه اياه • المقامة الثانية والاربعون النجرانية وفيها الغاز متعددة • المقامــة الرابعــة والاربعون الشفوية او اللغزية وفيها قصيدة تتضمن الغازا • المقامة السابعة والاربعون الحجرية وفيها يظهر ابو زيد حجاما ويتخاصم مع ابنه • المقامة التاسعة والاربعون : الساسانية تتضمن ان ابا زيد

لما شاخ اوصى ابنه بان لاصناعة انفع من الكدية • المقامة الخمسون : البصرية : تتضمن توبة ابي زيد ولزومه المسجد • تلك هي المقامات الطويلة في هذه الفئة التي حلق فيها الحريري كما ذكرنا • اما المقامات المتوسطة الطول في هذه الفئة فهي :ـ المقامة الاولى : الصنعانية •• وتتضمن ظهور ابي زيد واعظا ومخالفته ذلك في سلوكه • المقامة الثانية : الحلوانية •• وتتضمن نماذج من الشعر الرقيق • المقامة الثالثة الدينارية : وتسمى ايضا الفيلية وتتضمن مدح الدينار وذمه • المقامة الرابعة الدمياطية وتتضمن محاورة السروجي مع نجله حول الوصال والقطيعة • المقامة السابعة البرقعيدية : وفيها يتعامى السروجي وتقوده أمراة تفرق له الرقاع اثناء صلاة العيد ليجمع المال • المقامة الثالثة عشرة البغدادية وفيها يظهر ابو زيد على هيئة عجوز مكدية ومعها اولادها الجياع •

المقامة السابعة عشرة : القهقرية •• وهي تتضمن الرسالة التي كتبها الحريري بحيث تقرأ من اولهـا الى آخرها بوجه ومن آخرها الـى اولها بوجـه آخر • المقامة الخامسة والعشرون : الكرجيه •• وتتضمن كافات الشتاء وطلب السروجي ثيابا يكتسي بها • المقامة السابعة والعشـرون : الدبريـة او البردية •• وتتضمن طلب الحارث بن همام ناقتـه الضالة ولقياه ابا زيد • المقامة الثامنة والعشرون السمرقندية :• وتتضمن وقوف ابي زيد على ربوة يخطب خطبة غريبة عن الاعجام • المقامة الثانيـة والثلاثون : الطيبية او الحربية •• وتتضمن ان ابا زيد قام فقيها بمئة مسألة فقهية ملغزة • المقامة التاسعة والثلاثون العمانية وتتضمن ركوب ابي زيد البحر وأنه كتب عزيمة الطلق للحامل فوضعت حملها • المقامة الاربعون •• التبريزية •• وتتضمن تخاصم ابي زيد وزوجه عند القاضي واخذهما منه

دينارين • واما المقامات الاخرى في هذه الفئة فهي المقامات القصيرة وهي : المقامة الرابعة والعشرون القطيعية او النحوية •• وتتضمن القاء ابي زيد على جلسائة مسائل ملغزة في النحو • المقامه السادسة والعشرون •• الرقطاء •• وتتضمن الرسالة التي حروفها احدها منقوط والآخر بغير نقط • المقامة الثالثة والثلاثون التفليسية•• تتضمن ان ابا زيد به لقوة وقام في المسجد سائلا مستجديا المقامة السادسة والثلاثون • الملطية •• تتضمن الغازا اوردها السروجي بالمقايضه أي بما يماثلها من الكلام • المقامة السادسة الثامنة والثلاثون المروية •• تتضمن دخول ابي زيد مكديا عند الوالي وتعريضه به • المقامة الحادية والاربعون التنسية تتضمن قيام ابي زيد واعظا وقيام ابنه طالبا وكيف عطف ابو زيد الناس على ابنه •

ثانيا ـ فئة المقامات الأدنى مستوى مع اختلاف في درجة التدني من حيث المحتوى بالدرجة الاولى والاهم ومن ناحية الاسلوب ايضا وهي سبع عشرة مقامة تختلف من حيث الطول والقصر منها مقامتان قصيرتـان همـا •• المقامـة التاسعـة ـ الاسكندرانية •• تتضمن مخاصمة ابي زيـد مع امرأته وقد باع اثاثها • المقامـة الخامسـة والثلاثون ـ الشيرازية •• تتضمن كناية ابي زيد عن الخمر بأنه رباها بكرا • اما المقامات المتوسطة الطول في هذه الفئة فهي سبع :ـ هي المقامـة الخامسة ـ الكوفية •• تتضمن وقـوف أبـي زيد ببـاب بيت يطلب منـه القرى • المقامـة الثامنة ـ المعريـة تتضمن مخاصمـة وقـوف ابي زيد وابنه في الميل والابرة • المقامة الحادية عشرة الساوية •• تتضمن وقوف ابي زيد بالمقابر واعظا • المقامة الرابعـة عشـرة ـ المكيـة او

الحجازية .. تتضمن ان ابا زيد وابنه مغتربان معدمان احدهما يطلب راحلة والآخر يطلب زادا . المقامة التاسعة عشرة ـ النصيبية .. تتضمن مرض ابي زيد وزيارة اصحابه اياه . المقامة الحادية والعشرون ـ الرازية .. تتضمن كون ابي زيد واعظا وتعريضه بالامير . المقامة التاسعة والعشرون ـ الواسطية .. تتضمن لقيا الحارث بن همام بابي زيد السروجي في احد الخانات وما فعل السروجي بالنزلاء . واما المقامات الطويلة في هذه الفئة فهي المقامة الثانية عشرة ـ الدمشقية او الغوطية تتضمن كون ابي زيد خفيرا لقافلة بدعوات لقنها في المنام . المقامة الخامسة عشرة ـ الفرضية .. تتضمن براعته في حل لغز في مسألة فرضية . المقامة السادسة عشرة ـ المغربية .. تتضمن العبارات التي تقرأ طردا وردا .. اي التي لايغيرها عكس حروفها .

المقامة الثامنة عشرة ــ السنجارية .. تتضمن قصة ابي زيد مع جاره النمام . المقامة الرابعة والثلاثون ــ الزبيدية .. تتضمن بيع ابي زيد ولده على هيئة غلام الحارث بن همام . المقامة الثالثة والاربعون ــ البكرية او البدوية .. تتضمن ذكر خبر ناقة ابي زيد ومدح البكر والثيب وذم الادب . المقامة الخامسة والاربعون . الرملية .. تتضمن مشادة إبي زيد وزوجه . المقامة الثامنة والاربعون ــ الحرامية.. تتضمن سماع ابي زيد رجلا يسأل عن كفارة لذنبه وطلبه منه ان يعينه على فداء ابنه من الاسر . وقد وقعت حوادثها في مسجد بني حرام بالبصرة .

ثالثا ــ المقامات التي اتسمت ببذاءة المحتوى وبالالفاظ النابية وهي ثلاث احداها قصيرة وهي المقامة العشرون ــ الفارقية .. وتتضمن طلب ابي زيد

تكفين ميت . والاثنتان الأخريان طويلتان همـا المقامة الثلاثون ـ الصورية .. تتضمن كون ابي ابي زيد خطيبا في تزويج مكدية لمثلها . والمقامة السادسة والاربعون ـ الحلبية .. تتضمن كون زيـد خطيبا في تزويج مكدية لمثلها . والمقامـة الحريري تختلف اختلافـات كثيرة وكبـيرة في مضمونها . فهي تحتوي بتعبيره « على جد القول وهزله » ، وقد وشح في بعضها الآيات ومحاسن الكتابات ورصع في بعض آخر « المواعظ المبكية والاضاحيك الملهيـة » ولكنهـا جميعها تصف (بموضوعية وامانة) فئتين اجتماعيتين هي فئـة الخاصة من التجار وارباب الاعمـال والحرف المحترمة كالكتابة وهم سكان الحواضر ويؤلفون فئة مرفهة رغيدة العيش من جهة تقابلها من الجهة الثانية فئة المتسولين التي تعيش عيشة الكفاف وتفتقر الى ابسط مقومات الحياة من جهـة

اخرى • كما ان المقامات جميعا تصف نمطين من الناس هما الاشرار المتلونون الذين يحصلون على الثروة بجميع الوسائل الشريفة وغير الشريفة من ناحيــة ، والاخيــار المستقيمو السلوك الذين يترفعون عن كل مايشين الانسان من ناحيــة ـ ويفضلون شظف العيش على اكتساب الثروة بالطرق غير المشروعــة من ناحية ثانية • ومــع ان الحريري نفسه ينتمي من حيث النشــأة الى الفئة الاجتماعية المترفة ، وكان متوقعا ان يدافع عن تلك الفئة الاجتماعية الا انه ندد بها وشجب بعض تصرفاتها الخارجــة عــن مباديء الديــن الاسلامي الحنيف واظهر عطفه على المحرومين في كل مقامة من مقاماته •

اما موضوعات المقامات فشتى وفي محتوياتها تداخل كثير • ومع ذلك فان لكل منها طابعه المميز وسماته الواضحة المتبلورة / فبعضها يعبر عمــا

يسميه علماء النفس المعاصرون ازدواج الشخصية (او النفاق بالتعبير المألـوف) وهـي سبـع مقامات / بعضها يصف ازدواج شخصية الوعاظ وهي ثلاث مقامات المقامة الاولى (الصنعانيـة) والثامنة والعشرون (السمرقندية) والحاديـة والاربعون (التفليسية) • وبعض آخر يصف تلون الشعراء ـ المقامة الثالثة (الدينارية) • وبعض ثالث يتخذ من تجمع الناس لأداء فريضة الصلاة مثلا اداة لابتزاز الامـوال ـ المقامـة السابعة (البرقعيدية) • وبعض رابع يغتنم فرصة موسم الحج لتحقيق غرض لاينسجم مع المناسبة الدينيـة الكريمة هذه : المقامة الثانية والثلاثون الرملية • وبعضها الخامس يندد ببعض الحكام ويفضح تصرفاتهم الشائنـة المقامـة الاربعـون (التبريزية) • اما المقامة الرابعة (الدمياطية) فتعبر عـن اختلاف مواقف الناس ازاء المعتدين

في حين ان المقامتين التاسعة والاربعين (الساسانية) والخمسين (البصرية) تعبران عن استهجان الظلم والاضطهاد . واما المقامة الثانية (الحلوانية) فتعبر عن الاعتزاز بالحرية الفردية وبالنفور من الاتصال بالولاة . واما التحايل الفاضح فيبدو في المقامتين الثالثة عشرة (البغدادية) والحادية والثلاثين (الطيبية) مع انه موجود ضمنيا في اغلب المقامات وربما فيها جميعها . واما الاعتراض على من يقول « لم يبق ادباء مرموقون في ذلك الزمان » فيتضح (بشكل او بآخر ضمنيا وبشكل سافر) في سبع مقامات هي المقامة السابعة عشرة (القهقرية) والثانية والعشرون (الفراتية) والثالثة والعشرون (الشعرية) والرابعة والعشرون (القطيعية)

والسادسة والعشرون (الرقطاء) والسادسة
والثلاثون (الملطية) والرابعة والاربعون
(الشتوية) • ويظهر ذلك ايضا على هيئة نقد
للذين لايقدرون مكانة الأدباء كما ورد ذلك في
المقامة الثالثة والاربعين (البكرية) •

وفي فئة اخرى من المقامات يبدو نمط من التفكير
قريب الشبه جدا بما يطلق عليه الآن ظروف الحياة
ـ تناقض جوانبها وهذا يتضح في المقامة الثالثة والعشرين
(الوبرية) والثالثة والثلاثين (التفليسية) والسابعة
والثلاثين (الصعيدية) والثامنة والثلاثين (المروية)
والسابعة والاربعين (الحجرية) • اما البداءات فتظهر
ـ كما ذكرت ـ في المقامة العشرين (الفارقية) وفي
المقامة الثلاثين (الصورية) وفي المقامة السادسة والاربعين
(الحلبية) •

والى القارىء موجز لفحوى المقامــات حسب تسلسل ورودها مع تجسيد النقاط البارزة في كل منها :ـــ

١ ــ المقامة الصنعانية .. يصف الحريري فيها سفر الحارث بن همام الى صنعاء ودخوله فيها وهو في حالــة بؤس او شقــاء « خاوى الوفــاض بادى الأنفاض » وكان جائعا لايملك « بلغة ولايجد في جرابه مضغه » . فطفق يجوب طرقاتها عله يعثر على من يساعده فوجد ناديا مزدحما وفي وسطه شيخ يعظ الحاضرين بقوله « ايها السادر في غلوائــه السادل ثوب خيلائه إلام تستمر على غيك .. تأمر بالمعروف وتنتهك حماه وتحمي عن المنكر ولا تتحاماه وتزحزح عن الظلم ثم تغشــاه » . فانهالت عليه العطايا بعد ان أتم كلامه فخرج وتبعه الحارث بن همام (مواريا عنه عيانه حتى انتهى الى مغارة فهجم عليه الحارث فوجده « مشافهاً لتلميذ على خبز سنبذ وجدي حينئذ وقبالتهمــا

خابية نبيذ » فقال له « أيكون ذاك خيرك وهذا مخيرك » • وكان الواعظ ابا زيد بعينه فأنشد •

وصيرت وعظي أحبولة
أريغ القنيص بها والقنيصه
ولو أنصف الدهر في حكمه
لما ملك الحكم اهل النقيصة

يرسم الحريري في هذه المقامة فئتين من الناس احداهما ثرية موسرة غير مكترثة بشؤون المواطنين الآخرين والاخرى شقية فقيرة في هذه الحاضرة العربية الاسلامية العريقة ـ مدينة صنعاء اليمن ـ من ناحية وفئة المتسولين والعاطلين عن العمل والمحتاجين الى ابسط مقومات الحياة من جهة ثانية وهما فئتان اجتماعيتان بارزتان في المجتمع الاسلامي آنذاك) • ويرسم ايضا نمطين متنافرين من السلوك يتصف بهما الوعاظ احدهما الظاهر

امام الناس الذي تبدو عليه امارات الوقار والتزمت والاستشهاد بالآيات الكريمة والاقوال المأثورة التي تحث على التمسك بالفضيلة ومقت الدنيا وزخرفها والعمل للآخرة لاكتساب مرضاة الله . والآخر الباطن او الحقيقي وهو الاقبال على الملذات وعدم التحرج عن تعاطي كل ما هو مشين بمقاييس الدين الحنيف .

وهذا يذكرنا بسلوك فئة من القضاة اشار اليهم الثعالبي في يتيمة الدهر – ج٢ ص٢٣٦ – ٢٣٧ – عند تحدثه عن القاضي ابي القاسم علي بن محمد بن داود الذي « كان من اعيان اهل العلم والادب ... فأن اردت فأنه سبحة ناسك ... أو أحببت فأنه تفاحة فاتك ... او اقترحت فأنه مدرعة راهب ... أو آثرت فأنه نخبة شارب .. وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون اليه في الاسبوع ليلتين على اطراح

الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وكذا كان الوزير المهلبي .. فاذا تكامل الأنس واخذ الطرب فيهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في اعطاف العيش بين الخفة والطيش .. وقد وضع في يد كل واحد منهم طست ذهب .. مملوءا شرابا .. فيغمس ـ كل واحد منهم ـ لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب اكثره ويرش بها بعضهم بعضا .. ويرقصون بأجمعهم ... فاذا اصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت والتوقر والتحفظ وابهة القضاة وحشمة المشايخ » . يعزو الحريري عوامل ذلك التذبذب في السلوك الذي يشاهده لدى الوعاظ الذين يلبسون مسوح الرهبان في الظاهر ويسلكون نقيضه في السر الى طبيعة النفس البشرية وهي مجردة عن روابطها الاجتماعية « والظلم من شيم النفوس » بتعبير المتنبي . وهذا يعني أن النظام الاجتماعي السائد (النظام الاقطاعي آنذاك)

لاعلاقة له من قرب او بعيد بسلوك الافراد وفي انقسامهم الى فئات اجتماعية متنافرة المصالح والاغراض . وافتراض الحريري هذا ناجم في الاصل عن ظروف اجتماعية وثقافية لاسيطرة له عليها . وافتراضه هذا يظهر في مقاماته كلها . كما ان دعوته لاصلاح المجتمع تجري ضمن هذا الاطار لا خارجه او على حسابه الدعوة الى تهذيب الاخلاق وبث روح المساعدة والعطف على الفقراء وتذكيرهم بالآيات الكريمة والاقوال المأثورة ليرجعوا عن غيهم . وهذا يعني ـ بعبارة أشمل ـ أن الواقع الاجتماعي فاسد لفساد طبيعة الانسان المداهنة كما يعبر عن ذلك سلوك ابي زيد السروجي وان اصلاح المجتمع يستلزم التنبيه الى المفاسد والحث على تجنبها وعلى اتباع الفضيلة في القول والعمل . وهذا هو الدور الذي يلعبه الحارث بن همام الذي يتعقب سلوك ابي زيد السروجي اللا

اخلاقي ويفضحه ويؤنبه عليه ويدعوه الى تجنبه •

٢ ـ المقامة الثانية (الحلوانية) وموجزها أن سفر الحارث بن همام الى حلوان والتقاءه هناك بأبي زيد السروجي « وهو يتقلب في قوالب الانتساب ويخبط في اساليب الاكتساب فيدعي تارة أنه من آل ساسان ويعتزي مرة الى اقيال غسان » • اما تفاصيل هذه المقامة الطريفة فتدور حـول الشعر الرقيق ممثلا بأبيات منتقاة من شعـر البحتـري وبأبيات اخرى على نسقها تبدو أرق منهـا ذكرها الحريري نفسه ووضعها على لسان ابـي زيـد السروجـي • وفي هذه المقامـة يحاول الحريـري بالاضافة الى التعريف بمقدرته على تذوق الشعر الرقيق) أن يتعرض الى قضية اجتماعية شائعة آنذاك وما زالت كذلك في الوقت الحاضر في بعض الاوساط عندنا ، هي ان مكانة الشخص في المجتمع تحددها فقط مكانة الاسرة في المجتمع الذي يعيش

فيه ولا علاقة لها ايضاً من قريب او بعيد بتصرفاته الشخصية او مدى ما يبذله من جهة لخدمة مجتمعه • وتلك نزعة بدوية اقطاعية بدائية ــ بالمقاييس الحضارية الراهنة ــ استلزمتها ظروف محلية خاصة وكانت لها في ذلك الزمان جوانب تقدمية ايجابية طمستها الجوانب السلبية مما جعل الاسلام يمقتها ويجعل التفاضل بين الناس مبنيا على التقوى والعمل الصالح ويعتبر الفرد يستمد قيمته من العمل الذي يؤديه في خدمة المجتمع • اما الجانب الشعري في هذه المقامة فلا يخلو من الطرافة وقد وضعه الحريري على لسان الحارث بن همام بعد عودته من السفر وذهابه الى « دار الكتب التي هي منتدى المتأدبين » ودخول ابي زيد على هيئة رجل رث الثياب كثيف اللحية بدت عليه علامات الثقافة • وقد جلس الى جانب شخص يقرأ في ديوان ابي عبادة المشهود له بالاجادة »

واستفساره من الشخص عما عثر عليه للبحتري من بديع استملحه فقال الرجل نعم قوله :ـ

كأنما تبسم عن لؤلؤ
ونضد أو برد أو اقاح

فقال له ابو زيد « اين انت من البيت الندر الجامع مشبهات الثغر » :

نفسي الفداء لثغراق بسمه
وزانه شنب ناهيك من شنب

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد
وعن إقاح وعن طلع وعن حبب

فاستحسنه الحاضرون وانشد أحدهم بيتا لم ينسج على منواله حسب رأيه :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

فأنشد ابو زيد بيتين فاقاه روعة بنظر الجماعة :

سألتها حين زارت نضو برقعها القاني(م)
وايداع سمعي اطيب الخبر
فزحزحت شفقاً غشى سنا قمر
وساقطت لؤلؤا من خاتم عطر

٣ ـ المقامة الدينارية ـ وهي المقامة « بالغة الاهمية ـ بنظرنا ـ ذات المغزى الأجتماعي او العميق البعيد المدى . تتلخص حوادثها في ان الحارث بن همام دخل في ناد مع اخوان لـه يتجاذبـون اطـراف الاناشيد فأطل عليهم ابو زيد على هيئة شخص محتاج يشكو لهم سوء حاله ويرجو مساعدته . فابرز له الحارث بن همام دينارا وقال « ان مدحته نظما فهولك » فانشد ابو زيد مقطوعة في مدحه جاء بعض ابياتها :ـ

أكرم به اصفر راقت صفرته

جواب آفاق ترامت سفرته

وحبذا مغناته ونصرته

كم آمر به استتبت امرته

ومترف لولاه دامت حسرته

وجيش هم هزمته كرته

لولا التقى لقلت جلت قدرته

ثم جرد له الحارث بن همام دينارا آخر وقال له « هل لك في ان تذمه ثم تضمه » فأنشد ابو زيد السروجي مرتجلا مقطوعة اخرى جاء فيها :ـ

تبا له من خادع مما ذق

أصفر ذي وجهين كالمنافق

لولاه لم تقطع يمين سارق

ولابدت مظلمة من فاسق

ولا اشمأز باخل من طارق

ولا شكا المطول مطل العاشق

تنطوي هذه المقامة على اكثر من مغزى فهي تبين اولا اهمية الدينار رمز الثراء والجاه والنفوذ في المجتمع وتلك اهمية معروفة . وقد عبر عنها احد الشعراء احسن تعبير عند ما قال ـ

إن الدراهم في المواطن كلها

تكسو الرجال مهابة وجلالا

فهي اللسان لمن اراد مقالة

وهي السلاح لمن اراد قتالا

وقال المتنبي في مدح كافور :ـ

فلا ينحلل في المجد مالك كله

فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذي المجد كفه

اذا حارب الاعداء والمال زنده

وهي تشير ثانيا الى النظرة الواقعية للاشياء في جانبيها الايجابي والسلبي وفي ضوء وظائفها أو أوجه استخدامها وكون اهميتها لاتكمن في ذاتها وانما تستمد من علاقاتها بغيرها من الاشياء في هذا الموقف او ذاك • وهي تصف ثالثا ظاهرة المداجاه (او المواريه عند الشعراء) وهي ظاهرة ــ اجتماعية متأصلة في المجتمع القديم والحديث لعوامل كثيرة يتعذر حصرها اهمها بنظرنا الخوف من البطش وعدم شعور الفرد بالطمأنينة على حياته ومكانته الاجتماعية وحرية رأيه • وهي موجودة لــدى الحكام والمحكومين آنذاك على حد سواء • ومن طريف ما ذكره الرواة في هذا الصدد أن خالد بن عبدالله القسري صعد منبر مكة يوم الجمعة وهو أمير للوليد بن عبدالملك بن مروان فأثنى علــى الحجاج خيرا • فلما كانت الجمعة الثانية ــ وقد مات الوليد ــ ورده كتاب سليمان بن عبدالملك

يأمره بشتم الحجاج وذكر عيوبه واظهار البراءة منه • فصعد خالد بن عبدالله القسري المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان ابليس كان يظهر من طاعة الله عز وجل ما كانت الملائكة ترى له به فضلا عليها • وكان الله علم من غشه ما خفي على الملائكة فلما اراد الله فضحه ابتلاه بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه • وان الحجاج كان يظهر من طاعة امير المؤمنين ما كنا نرى له بـه فضلا • وكان الله قد اطلع امير المؤمنين من غله وغشه ما خفي عنا • فلما اراد فضحه اجرى ذلك على يد أمير المؤمنين • فالعنوه لعنة الله • ثم نزل • وذكر الرواة ايضا ان غيلان بن خرشـة الضبي قد مر مع عبدالله بن عامر بنهر أم عبدالله الذي يشق البصرة • فقال عبدالله بن عامر ياغيلان ما أصلح هذا النهر لاهل هذا المصر !! فقال غيلان اجل والله يا ايها الامير يتعلم العوم به صبيانهم ويكون

لسقائهم ولسيل مياههم ويأتيهم بميرتهم • ثم عاد ابن عامر فساير غيلانا عليه • ثم قال ياغيلان ما أضر هذا النهر لاهل هذا المصر !! فقال غيلان أجل والله ايها الامير تنز منه دورهم وتغرق فيه صبيانهم ويكثر لاجله بعوضهم •

تلك الظاهرة اجتماعية شائعة مألوفة يجتمع فيها الشيء ونقيضه ويستوي فيها ايضا المدح والقدح • وهي ظاهرة موضوعية بنظرنا لاتنطوى دائما وحتما أو بالضرورة على التلون او التذبذب في جميع الاحوال • وتحضرنا ــ في هذه المناسبة ــ ملاحظات طريفة وعميقة ابداها الجاحظ بقوله « ان العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره فاذا ابتلى به فخربه • ولكن لايفخر لنفسه من جهة ما هجا به غيره • فافهم هذا • فان الناس يغلطون على العرب • ويزعمون انهم يمدحون الشيء الذي يهجونه • وهذا باطل • ليس شيء إلا وله وجهان :

فاذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين • واذا ذموا ذكروا اقبح الوجهين » • لاشك في ان قـول الجاحظ هذا يصف بعمق ظاهرة اجتماعية عامة لاينفرد بها قوم دون قوم او فرد دون آخر في المجتمع الواحد • غير أن قوله هذا بنظرنا ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق • فليس لظاهرة الاعتداء مثلا وجهان • كما ان الظواهر ذات الوجهين ـ وهي كثيرة ـ لايكون وجهاها على درجة واحدة من الأهمية • وهنا يتجلى مبدأ الترجيح من ناحية ومبدأ النقض والشجب من ناحية اخرى • وهذا هو الذي يضمن بنظرنا سلامة المواقف ويحول دون التضليل •

٤ ـ المقامة الدمياطية ـ هذه المقامة على نسق المقامة الدينارية التي مر بنا ذكرها تنطوي في الأصل على نمط من انماط الفكر المحص او الناقد في نظرته الى الامور • وفحوى المقامة ان الحارث بن همام

سافر الى دمياط مع جماعة من اصدقائه وعند مبيتهم في مكان قبل بلوغهم دمياط سمع الحارث بن همام اثناء استيقاظه رجلين يتبادلان الحديث (هما ابو زيد وابنه) حول موقف كل منهما ازاء الناس . قال احدهما لصاحبه « كيف حكم سيرتك مع جيلك وجيرتك » . فقال الآخر « ارعى الجار ولو جار .. ولا اتظلم حين أظلم . فرد عليه الأول بقوله « لا اصافي من يأبى انصافي .. وكيف يجتلب انصاف بضيم واي حرضي بخطة خسف » . هذه المحاورة تمثل نزعتين اجتماعيتين تسودان المجتمع في العادة تمثل الأولى منهما نمطا من البشر الهادئين المسالمين القانعين الذين يقابلون الاساءة بعكسها ويقفون من الظلم موقف المتحمل والجلد ومن الاعتداء موقف المتسامح والمتغاضي ومن القطيعة موقف الوصل . وتعبر الثانية عن نمط آخر من الناس الذين يقابلون الاساءة بالاساءة والظلم

بمثله والقطيعة بالقطيعة • اما أيهما الأصوب بنظر الحريري فذلك لاسبيل الى معرفته بشكل صريح وان كان السياق يوحي بأن الموقف الثاني هو الاصوب وهو الذي وضعه الحريري على لسان ابي زيد السروجي نفسه •

٥ ـ المقامة الكوفية ـ يلوح أنها مقامة للتسلية فحواها ان الحارث بن همام سمر بالكوفة مع رهط من الادباء وان شيخا ـ هو ابو زيد السروجي ـ دخل عليهم وروى لهم قصة مختلقة خيالية عن عجائب ما صادفه في سفرة من اسفاره الكثيرة وكيفية التقائه بابنه بعد فراق طويل • ولكن ضيق ذات يده منعه من اصطحاب ابنه • فجمع لهم الحارث بن همام مبلغاً من المال وسلمه المبلغ المطلوب • وهي لاتخلو من تجسيد تحايل ابي زيد في الحصول على المال •

٦ ـ المقامة المراغية ـ مقامة ذات مغزى اجتماعي طريف وتنطوي على اكثر من فكـرة وملخصهـا ـ ان الحارث بن همام حضر مجلسا ادبيا جرى فيه ذكر البلاغة فاجمع الحاضرون على ان الزمان مضى باربابها ولم يبق « من ينقح الانشاء • ولا خلف بعد السلف من يبتدع طريقة غراء او يفترع رسالة عذراء » • فسفه كهل ـ هو ابو زيد السروجي ـ ذلك القول واطرى على ادباء زمانه ونقد القدامى وقال « هل للقدماء ـ اذا أنعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة الموارد » • ثم استطرد يقول « واني لأعرف الآن من اذا انشا وشى واذ عبـر حبر واذا اسهب اذهب واذا اوجز أعجز » • ثـم ألغز السروجي فحير الجماعة ببلاغته •

تلك هي احدى الافكار التي تنطوي عليها المقامة • وفكرة اخرى ربما اهم منها في مغزاها الاجتماعي

عبر عنها الحريري على لسان السروجي بالبيتين التالين :

فالموت خير للفتى

من عيشه عيش البهيمة

ويرى السباع تنوشها

أيدي الضباع المستضيمة

والحريري ــ في هذه المقامة كما في غيرها ــ يكتفي بمجرد اظهار الجزع والتوجع من الاوضاع الاجتماعية السيئة وليس لديه من سبيل الى اصلاحها سوى الوعظ او الارشاد .

٧ ــ المقامة البرقعيدية ــ وهي ذات مغزى اجتماعي بالغ الاهمية يرتبط بذم الدهر لانه لايعطي كل ذي حق حقه ولايضع الامور في نصابها الصحيح . وهذه عادة اهل ذلك الزمان يلقون تبعة الفساد الاجتماعي على الزمان « الدهر » الفاسد بمعناه

الميتافزيقي الذي لايرتبط بالزمان او المكان او الظروف الاجتماعية السائدة • ولابد للمرء من العمل وعلى المصلحين الذين يخاطبهم الحريري على لسان الحارث بن همام ان ينبهوا الناس الى اخطائهم وان ينشروا التسامح والمحبة وروح المساعدة •

وخلاصة المقامة ـ ان الحارث بن همام سافر الى مدينة برقعيد « وقد شام برق عيد » وبرز مع من برز للتعبد ثم حضر صلاة العيد فطلع ابو زيد السروجي على هيئة شيخ محجوب المقلتين « وقد اعتضد شبه المخلاة واستقاد لعجوز كالسعلاة » • واخرج اوراقا وناولها العجوز لتوزعها على المصلين وفيها ابيات رقيقة تشرح سوء حاله وتدعوهم الى مساعدته • وبعد أن نال مناه خرج مع العجوز فتبعهما الحارث بن همام فأدركهما

فاذا الشيخ ابو زيد السروجي وعيناه مفتوحتان وانشد :

ولما تعامى الدهر وهو ابو الورى
عن الرشد في إنحائه ومقاصده

تعاميت حتى قيل اني أخو عمى
ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

٨ ـ المقامة المعرية ـ وفيها تعريض بالقضاة وموجزها ان الحارث بن همام شاهد خصمين تقدما الى قاضي معرة النعمان . احدهما « قد ذهب منه الاطيبان والآخر كأنه قضيب البان » . وقد ألغز الشيخ الذي هو أبو زيد السروجي وألغز الفتى بعده بعبارات رقيقة فحواها ان الفتى استعار ابرة من الشيخ وأتلف منفذ الخيط فيها وان الشيخ استعار من الفتى مرود كحل وأتلفه ايضا . وتلاحيا وتباريا بالاشعار وذكرا سوء اوضاعهما فاهتز القاضي

لانشائهما ورق لحالهما و « ابرز لهما دينارا من تحت مصلاة وقال لهما اقطعا به الخصام وافضلاه » • وعندما علم بمكرهما ندم ولات ساعة مندم •

٩ ـ المقامة الاسكندرية ـ وفيها ايضا تعريض بالحكام وملخصها على لسان الحارث بن همام انه « يلزم الاديب اذا دخل البلد الغريب ان يستميل قاضيه ويستخلص مراضيه ليشتد عند الخصام ويأمن في الغربة جور الحكام » •

وبينما هو عند قاضي الاسكندرية اثناء توزيعه الصدقات على مستحقيها دخل ابو زيد بزي « شيخ عفريتة تنقله امرأة مصبية » تشكوه الى القاضي لتقصيره عن اعالتها وانه عندما تزوجها اغراها بانه صاحب بضاعة تدر عليه المال الوفير • والشيخ يعتذر عن تقصيره في اداء حقها لضيق ذات

يده ولكساد بضاعته التي هي الأدب • وقد انشد
ابياتا رقيقة في هذا المعنى منها :ــ

انا امرؤ ليس في خصائصه
عيب ولا في فخــاره ريب
سروج داري التي ولدت بها
والاصل غسان حين انتسب

وشغلي الدرس والتبحر في العلم طلابــي وجــدا
الطلب

ورأس مالي سحر الكلام الذي
منه يصاغ القريض والخطب
وكنت من قبل امتــري نشبا
بالادب المقتنــى واحتلــب

فاليوم من يعلق الرجاء به
اكسد شيء في سوقه الادب

فو الذي سارت الرفاق الى
كعبتـه تستحثهـا النجب

فرق القاضي لحاله واعطاه نصيباً مـن الصدقات ثم تبين له انهما كذبا عليه وان الشيخ هو ابو زيد السروجي .

١٠ـ المقامة الرحبية ـ وفيها تعريض بالقضاة ايضا وهي تعبر عن نمط آخر من انماط المكر الذي اتصف به ابو زيد السروجي واتخـذه احبولة لابتـزاز الاموال والكسب غير المشروع . وفي الفاظها اناقة ورقة وملخصها ان الحارث بن همام يذكر أنه رأى عندما كان في رحبة مالك بن طوق « غلاما أفرغ في قالب الجمال .. وقد اعتلق شيخ بردنه يدعي انه فتك بابنه . والغلام ينكر معرفته ويكبر قرفته فاحتكما الى قاضي البلد . وكان ممن يزن بالهنات ويغلب حب البنين على البنات » . فادعى الشيـخ

ان الفتـــى قتــل ولــده ولكـــن الفتـــى انكر ذلك • وتمشيا مع مبدأ « البينة على من ادعى واليمين على من انكر » وقظراً لعجز الشيخ عـن الأتيان بالبينة فقد طلب القاضي من الغلام تادية اليمين • غير أن الشيخ رجا القاضي ان يسمح له ان يقوم هو بدل القاضي بعملية تلقين الفتى اليمين فوافق القاضي فقال الشيخ للغلام « قـل والذي زين الجباه بالطـرر والعيـون بالحـور والحواجب بالبلج والمباسم بالفلج والجفون بالسقم والانوف بالشمم والخدود باللهب والثغور بالشنب والبنان بالترف والخصور بالهيف انني ماقتلـت ابنك »[1] فرفض الغلام فتلاحيا والغلام في ضمن تأبيه يخلب قلب الوالي بتلويه ويطمعه في أن يليه الى أن ران هواه على قلبه •• فسول له الوجد

---

١ ـ هذه اليمين المخترعة حكى الاصمعي شبهها •

الذي تيمه والطمع الذي توهمه ان يخلص الغلام ويستخلصه وان ينقذه من حبالة الشيخ ثم يقتنصه فقدم للشيخ مالا يرضيه فقال الشيخ « اقبل منك على أن الازمه ليلتي ويرعاه انسان مقلتي ، فوافق القاضي فأخذ الشيخ الغلام « وركب متن الطريق واذاق القاضي عذاب الحريق » • فتبعهما الحارث بن همام فقال لـه السروجي الذي تقمص شخصية الشيخ ان هذا الفتى « هو في النسب فرخي وفي المكتسب فخي » •

١١ـ المقامة الساوية ـ يظهر فيها ابو زيد السروجي علي هيئة واعظ في احدى المقابر للحصول على المال من اهل الميت كما روى ذلك الحارث بن همام اثناء وجوده في ساوة وقيامه بزيارة مقبرتها •

١٢ـ المقامة الدمشقية ـ وفيها نمط آخر من مكر السروجي رواه الحارث بن همام اثناء عودته الى الوطن مع رفاق لـه من دمشق بعد ان قضوا في

غوطتها اياما جميلة وقد تقمص السروجي شخصية حارس ودليل للقافلة وهي في طريقها من الشام الى العراق وتظاهر بالفقه والدراية وعند بلوغهم اطلال عانة قال لهم الأعانة .. فاحضروا المعلوم والمكتوم .. وقالوا له اقض بما انت قاض تجد فينا غير راض . « فتناول ما خف حمله وغلى ثمنه ومضى لسبيله فتعقبه الحارث بن همام وعلم انه قد دخل عانة ما برح يزايل الحانة . قال الحارث « فأولجت الى دسكرة في هيئة متنكرة فاذا الشيخ في حله معصرة بين دنان ومعصرة وحوله سقاة تبهر وشموع تزهر .. وهو تارة يستنزل الدنان وطورا يستنطق العيدان ودفعة يستنشق الريحان واخرى يغازل الغلمان » .

١٣ــ المقامة البغدادية ــ يصف الحارث بن همام ندوة شعرية في مدينة السلام وقد داهمهم اثناءها ابو زيد متقمصاً شخصية عجوز « يتبعها صبية انحف من

المغازل » • وانشدتهم العجوز قصيدة تشكو لهم سوء حالها وتذم الدهر الذي ازرى بها وتطلب منهم المساعدة وقد غادرت المكان بعد أن « صدعت بابياتها اعشار القلوب واستخرجت خبايا الجيوب » فتبعها الحارث بن همام بعد أن « عاجت بخلو بال الى مسجد خال وعندما احاطت الجلباب » راى الحارث (محيا ابي زيد) الذي اندفع ينشد :

اصطـــاد قومـــا بوعظ
وآخريـــــن بشعـــــر
ولـــو سلكت سبيـــلا
مألوفـــة طـــول عمري
لخاب قدحـــي ومدحي
ودام عسرى وخســـري

١٤ـ المقامة المكية ـ ملخصها أن أبا زيد تقمص زي « شيخ متسكع يتلوه فتى مترعرع » على ما يذكر

الحارث بن همام اثناء تأديته فريضة الحج مع رفقة ظراف فأنشد قصيدة اورد فيها حسبه وادبه ثم اعقبه الفتى بتلاوة قصيدة مماثلة .

١٥ـ المقامة الفرضية ـ روى الحارث بن همام ان ابا زيد السروجي طرق الباب عليه في ليلة أرق فيها الحارث وقال له « غدوت وقت الأشراق الى بعض الاسواق لصيد يسنح او حر يسمح فلحظت تمرا قد أحسن تصفيفه وقبالته لبأ قد برز كالابريز الاصفر .

فأسرتني الشهوة بأشطانها واسلمتني العيمة الى سلطانها فبقيت أحير من ضب واذهل من صب لا وجد يوصلني الى نيل المراد ولذة الازدراد ولاقدم تطاوعني على الذهاب مع حرقة الالتهاب» .

وحالة الحيران المتردد هذه يصفها الحريري على لسان السروجي وصفا سايكولوجيا عميقا بأسلوبه الشيق . ثم يستطرد السروجي في وصف الحيلة التي ابتدعها لنيل قصده فيذكر مقابلته شيخا يحمل رقعة

ابيات في فتيا معقدة يريد حل الغازها فطمنه على الحل بعد أن يتناول الطعام لانه جائع ولكنه يريد « ازهى راكب على اشهى مركوب وانفع صاحب مع اضر مصحوب » . كناية عن التمر واللبأ . فذهب الشيخ الى السوق وجاء بهما معا .

ثم قال السروجي حتى « اذا هلقمت النوعين وغادرتهما اثرا بعد عين « أوضحت له اسرار فتياه فأمرني بمغادرة المنزل قائلا « اهلك والليل فشمر الذيل . لاني انعمت النظر في التقاك ما حضر حتى لم تبق ولم تذر . فرأيتك لاتنظر الى مصلحتك ولاتراعي حفظ صحتك » . ويختتم ابو زيد الحديث ويقول ــ للحارث فخرجت « تجودني السماء وتخبطني الظلماء . وتنبحني الكلاب وتتقاذفني الابواب حتى ساقني اليك لطف القضاء » .

١٦ـ المقامة المغربية ـ قال الحارث بن همام « شهدت صلاة المغرب في بعض مساجد المغرب » • وبعد انتهاء الصلاة غشينا السروجي على هيئة جواب يطلب المساعدة وأنه « لشريد محل قاص ويريد صبية خماص » وكنا نتجاذب اطراف الأدب الى « ان جلنا فيما لايستحيـل بالانعكاس كقولك ساكب كاس » اي انهم تفاوضوا وداروا بالذي لايتحول ولايتغـير بالقلب اورد الأول آخـراً • فشاركهم السروجي سمرهم الأدبي وسحرهـم ببلاغته وفطنته وظفر بما اراد من المال واستأذن بالذهاب الى صبيته الخماص وان يعود بعد ذلك ولكنه لم يفعل •

١٧ـ المقامة القهقرية ـ وهي المقامة التي تقرأ مقلوبة ايضا من آخرها كما تقرأ معتدلة من اولها • وقـد وضعها الحريري على لسان السروجي كما روى

ذلك الحارث بن همام • والمقامة هذه فريدة في بابها من الناحية اللغوية وطريفة ايضا •

١٨ـ المقامة السنجارية ـ يروى الحارث بن همام في هذه المقامة قصة سفره من الشام الى بغداد في ركب من بني نمير ومعهم ابو زيد السروجي ونزولهم سنجار اثناء وليمة اقامها أحد التجار ودعاهم اليها وقد قدم لهم جام الـى حلـواء = بعد الطعـام « كأنما جمد من الهواء او جمع من البهاء او صيغ من نور الفضاء » • فاضطرب ابو زيد وطالب برفع الجام فورا على اساس ان الزجاج نمام « فرفعت الحلواء » دون ان يمسها احد وروى ابو زيد قصته مع جار له اطلعه ابو زيد ـ وهو في حالة سكر ـ على جارية جميلة عنده فذهب هذا الى الامير وابلغه الخبر فاخذ الجارية قسرا وجورا • فلما سمـع التاجر سجع ابي زيد وقريضه أمر باحضار عشـر صحاف « فيها حلواء القند والضرب » ثم امـر

خادمه بنقلها الــى نزل ابي زيد وقبل خروجه مال ابو زيد الى استهداء الصحاف ايضا مع الحلواء فقال رب البيت كلاهما لك والغلام • فخرج ابو زيد مسرورا وهو يردد لست أدرى أأشكو ذلك النمام ام أشكره فأنه وان كان اسلف الجريمة ونم النميمة فمن غيمه انهلت هذه الديمة » •

١٩ـ المقامة النصيبية ـ يذكر الحارث بن همام خروجه الى نصيبين الخضراء في اعقاب موسم امحل فيه العراق وانه فور نزوله بها ألفى ابا زيد « وهو ينثر من فيه الدرر ويختلب بكفه الدرر » وبعد فترة مرض ابو زيد فعاده الحارث مع فئة من الاصدقاء وعندما حان وقت الغداء رجاهم بالبقاء وامر ابنه ان يحضر المائدة واستخدم الغازا طريفة تشير الى اسماء الاطعمة ثم ودعهم بعد الفراغ من الطعام وانشد :

لاتيأسن عند النوب

من فرجة تجلو الكرب

فاصبر اذا أناب روع

فالزمان ابو العجب

٢٠ـ المقامة الفارقية ـ جرت أحداث هذه المقامة اثناء وصول الحارث بن همام مع بعض اصدقائه الى ميافرقين وقد ابتدرهم ابو زيد السروجي على هيئة شيخ محتاج يطلب المساعدة لسد نفقات وفاة ابنه الشهم • وابنه هنا كناية عن احد اعضاء جسمه • والمقامة تتصف بالبذاءة ويلوح ان الحريري الشيخ الوقور العف اللسان المترفع عن تعاطي كل ما يشين الرجال اراد ان يبرهن في هذه المقامة على قدرته اللغوية حتى في الكلام البذيء • كما اراد ان يدلل على سعة اطلاعه بجوانب الحياة الاجتماعية المتدنية الشائعة في زمانه وابرازها بشكلها السمج الممقوت للتشهير بمرتكبيها عساهم

حسب رأيه ـ عن غيهم يرتدعون •

٢١ـ المقامة الرازية = جرت حوادث هذه المقامة في الري عندما وافاها الحارث بن همام طلبا للحكمة والادب • وقد ظهر فيها السروجي متقمصاً شخصية واعظ يدعو الناس الى الزهد بالنثر تارة وبالشعر تارة اخرى •

٢٢ـ المقامة الفراتية ـ ملخصها خروج الحارث بن همام الى بعض مزارع الفرات واتصاله بادباء بارعين وقد سافروا جميعا في سفينة الى خراسان وركب معهم السروجي بزي شيخ • ثم جرى ذكر الكتابتين كتابة الانشاء وكتابة الحساب • « وفضلهما وتبيان افضلهما » فانقسمت الجماعة الى فئتين فقال الشيخ « اعلموا ان صناعة الانشاء ارفع وصناعة الحساب انفع وقلم المكاتبة خاطب وقلم المحاسبة حاطب » • والمنشيء جهينته الاخبار وحقيبته الاسرار ونجي

العظماء وكبير النداء وقلمه لسان الدولة وهو البشير والنذير والسفير • به نستخلص الصياصي القاصي وتملك النواصي ويقتاد العاصي ويتدنى » • واستطرد قائلا « إلا أن صناعة الحساب موصوفة على التحقيق وصناعة الانشاء مبنية على التلفيق » وقلم الحاسب ضابط وقلم والمنشيء جهينته الاخبار وحقيبته الاسرار ونجي والمحاسب مناقش والمنشيء ابو براقش ولكليهما حمة حين يرقى الى ان يلقى ويرقى • ولكليهما إعنات فيما ينشأ حتى يغشى ويرشى الا الذين امنوا وعملوا الصالحات • وقليل ماهم ـ ثم انشد :

لاتعجلن بقضية مبتوتة

في مدح من لم تبله او خدشه

واعلن بأن التبرفي عرق الثرى

خاف الى ان يستثار بنبشه

وفضيلة الدينار يظهر سرها

من حكه لا من ملامح نقشه

٢٣- المقامة الشعرية - قال الحارث بن همام . « وردت حمى الخلافة والحرم العاصم من المخافة وقصرت همي على لذة اجتنبها وملحة اجتليها » . وقد لاحظت في احد الايام حولها قصر الملك « شيخ سليط اللسان يأخذ بتلابيب فتى خلق الجلباب وحولهما فرسان متتالون ورجال متتالون فركضت في اثر النظارة حتى وافينا باب الامارة وهناك صاحب المعونة متربعا في دسته » فشكا الشيخ - الذي هو السروجي - الفتى الذي زعم انه « كفله فطيما ورباه يتيما وعلمه ولكنه تنكر له . ثم اوسعه شتما وكلاما قبيحا لأنه سرق شعره واستراق والشعر عند الشعراء افظع من سرقة البيضاء والصفراء » . فقال الوالي للشيخ وهل

حين سرق سلخ ام مسخ او نسخ ؟ فقال الشيخ ـ الذي هو ابو زيد كما ذكرنا « والذي جعل الشعر ديوان العرب وترجمان الادب ما احدث سوى ان بتر شمل شرحه واغار على ثلثي سرحه ثم انشد :ـ

يا خاطب الدنيا الدنية انها
شرك الردى وقراره الاكدار

دار متى ما اضحكت في يومها
ابكت غدا بعداً لها من دار

واذا أظل سحابها لم ينتفع
منه صدى لجهامه الغرار

غاراتها ما تنقضي واسيرها
لايفتدى بجلائل الاخطار

كم مزدهى بغرورها حتى بدا
متمردا متجاوز المقدار

ثم قال لقد اقدم هذا الفتى للؤمه في الجزاء على ابياته السداسية الاجزاء فحذف منها جزءين وانقص من اوزانها وزنين حتى صادر الرزء بها ورزءين وانشد :

يا خاطب الدنيـا الدنيـة
إنهـا شـرك الـردي
دار متـى مـا اضحكـت
في يومهـا ابكـت غـدا
واذا اظلـل سحابهـا
لم ينتفـع منـه صـدى
غاراتهـا مـا تنقضـي
واسيرهـا لايفتـدى
كـم مزدهـي بغرورهـا
حتـى بـدا متمـردا

فقال الفتى .. برئت من الادب ...

ان كانت ابياته نمت الى علمي •• وانما اتفق

توارد الخواطر كما قد يقع الحافر على الحافر(٢)

فقال الوالي اني مولع من انواع البلاغة بالتجنيس

فاظما الان عشرة ابيات •• وضمناها شرح حالي

---

٢ ـ ديوان العرب ـ الكتاب الذي تدون فيه اخبارهم . الدنية = التي لاخير فيها . شرك الردى = مصيدة الهلاك . قرارة = موضع يستقر فيه الماء الاكدار = مايتكدر به الماء الصافي . جهامه = سحابه الذي لاماء فيه . الفرار = الخداع . مزده = معجب . اقدم للؤمه في الجزاء = اي انه جازاه على مافعل معه من الخير مجازاة اللئيم فسرق ابياته السداسية الاجزاء = التي عروضها من الكامل واجزاؤها متفاعلن ست مرات : الرزء = المصاب . فلد = قطع توارد الخواطر = تواطؤ الاذهان . ويقال ان المتنبي سئل عن اتفاق الخواطر في الشعر فقال .. الشعر ميدان والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخواطر = تواطؤ الاذهان . ويقال ان المتنبي سئل عن اتفاق الخواطر في الشعر فقال .. الشعر ميدان والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخواطر كما قد يقع الحافر على الحافر .

مع إلف بديع الصفة ألمى الشفه مليح التثني كثير التغني والتجني مفرط في تناسي العهد واطالة الصد واختلاف الوعد وانا له كالعبد ... فبرز الشيخ مجليا وتلاه الفتى مصليا :

وأحوى حوى رقي برقة ثغره
وغادرنـــي إلف السهاد بغدره
تصدى لقتلي بالصدود وانني
لفي أسره قد حاز قلبي بأسره
أصدق منه الزور خوف ازوراره
وأرضى استماع الهجر خشية هجره
واستعذب التعذيب منه وكلما
أجد عذابي جدبـــي حب بـــره
تناسى ذمامي والتناسي مذمـــة
واحفظ قلبي وهو حافظ سره
واعجب ما فيه التباهي بعجبه
وأكبـــره عـــن ان افوه بكبره

له مني المدح الذي طاب نشره
ولي منه طي الود من بعد نشره

ولو كان عدلا ما تجنى وقد جنى
علي وغيرى يجتني رشف ثغره

ولولا تثنيه ثنيت اعنتي
بداراً الى من أجتلى نور بدره

وإني على تصريف أمرى وامره
أرى المرحلوا في انقيادي لأمره

فلما انشدها الوالي متراسلين بهت الوالي .. وقال « اشهد بالله انكما فرقدا سماء وكزندين في وعاء ثم افاض عليهما خلعتين ووصلهما بنصاب من العين فخرجا مسرورين »[٣] .

---

٣ ـ وهناك انماط اخر من التجنيس منها .. تجنيس الخط وهو مايصح تصحيفه كقول البحتري :

ولم يكن المغتر بالله اذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

ومنها تجنيس السمع تقول البستي :

يظهر الحريري اذن في هذا المقامة الطريفة شاعرة مفتونا بالتجنيس ومحلقا فيه • والتجنيس المشار اليه يعني اتفاق اللفظ الواحد او اكثره واختلاف المعنى أي ان يجيء الشاعر بكلمة تجانس اخرى في لفظها وتختلف عنها في معناها • وهذا هو تجنيس اللفظ[٤] كما ورد في الابيات المشار اليها وكما ورد مثلا في الابيات التالية لابن الزقاق :

قسا فرماني عن قسي حواجب
تنوب لها وأبا عن الرشق عيناه
ابوك كريم غير انك سابق مداه فلا ضيم عليك ولاذم
فلا يعجبن الناس مما إقوله
واقضي به فالغيث يقدمه الغيم

ومنها تجنيس المضارعة كقول ابي تمام :

يمدون من ايد عواص عواصم
تطول باسياف قواض قواضب
وباب التجنيس انفرد به ابو تمام .

تمنيت من أهوى به وهو قاتلي

ورب منى للمرء فيها منايـاه

بذلنــا دماءاً في هواه وادمعاً

وضن لنا ظلماً بظلـم ثنايـاه

فما برح الشوق المبرح ساعياً

لأحوى حوى كل المحاسـن مرآه

فمنظره والثغر منــه وعرفــه

وقامته والردف منــه وخـداه

لشمس الضحى والدر والمسك نفحة

وغصن النقا والدعص والورد اشباه

ويبدو التجنيس اللفظي ايضا ـ وهـو كثـير في الشعر العربـي ـ في البيت الأخير من الابيـات الرقيقة التالية :ـ

رأت منه عيني منظرين كما رأت

من الشمس والبدر المنير على الارض

عشيـــة حيانـــي بورد كأنـــه

خدود أضيفت بعضهن الى بعض

ونازعني كأسا كأن حبابهـــا

دموعي لما صد عن مقتلي غمضي

وراح وفعـــل الـــراح في حركاتـــه

كفعل نسيم الفجر في الغصن الغض

٢٤ـ المقامة القطيعية ـ ذكر الحارث بن همام أنه عاشر بقطيعه الربيع من احياء بغداد فئة من الاخوان وقد خرجوا في يوم سماد جنه .. وحكم بالاصطباح مزنه .. الى بعض المروج ومعهم الكميت والسقاة وغنى شاديهم الابيات المعروفة :

إلأم سعاد لاتصلين حبلى

الـــــى ان قـــــال /

فأن وصلا الذ بـــه فوصل

وإن صرماً فصرم كالطلاق

فجرى خلاف بينهم حول نصب « الوصل الاول »
ورفع الثاني « فقالت فرقة رفعها هو الصواب
وقالت طائفة لايجوز فيهما إلا الانتصاب واستبهم
على آخرين الجواب . واستشعر بينهم
الاصطخاب » فقال شيخ كان قد دخل عند بداية
الجلسة ـ وهو السروجي ـ « انه ليجوز رفع
الوصلين ونصبهما والمغايرة في الاعراب بينهما
وذلك بحسب اختلاف أضمار وتقدير المحذوف
في هذا المضمار » . ثم انهمكوا في جدال طويل
حول قضايا ادبية ولغوية صرفية ونحوية اخرى
كثيرة ممتعة تتخللها الاحاجي . قال الحارث بن
همام . « فلما اعجزنا العوم في بحره ـ اي في بحر
الشيخ الذي هو السروجي» جمعنا له من المال ما اراد
واخذنا نعرض عليه ارتضاع الكاس ... فشمخ
بانفه ـ صلفا وانشد :

نهاني الشيب عما فيه أفراحي

فكيف اجمع بين الراح والراح

٢٥ـ المقامة الكرجية ـ يصف الحارث بن همام شتاء قارص البرد قضاه بالكرج بحيث كان يتعذر عليه مفارقة الموقد في داره إلا عند الضرورة القصوى • وقد وقع بصره في احد الايام على السروجي بزي شيخ عارى الجلدة « ••• وحواليه جمع كثيف الحواشي » وهو ينشد ابياتا يصف فيها سوء حاله وكيف ازرى به الدهر « ويستعطف ارباب الثراء الداخلين في الفراء » **ويقول:**

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما

فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

قال الحارث لقد « ساءني ما يعانيه من الرعدة واقشعرار الجلدة فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي وفي الليل فراشي فنضوتها عني وقلت له اقلها مني •

فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي وفي الليل فراشي فنضوتها عني وقلت له اقبلها مني •

٦٦ـ المقامة الرقطاء ـ اشتق اسمها من الرقطة وهي السواد يشوبه نقط بياض لأن احد حروف الرسالة التي احتوتها المقامة منقوطة والآخر غير منقوط •

وملخصها ان الحارث بن همام غادر الاهواز « لا بساحله الاعواز » وبعد مسيرة ليلتين تراءت له « خيمة مضروبة ونار مشبوبة » حولها فتيان وشيخ ـ هو السروجي ـ عليه بزه سنيه ولديه فاكهة جنيه قال الحارث فسألت الشيخ « من اين ايابك ؟

والى اين انسيابك ؟ وبم امتلأت عيابك » ؟
فقال أما القدوم فمن طوس واما المقصد فألى سوس واما الجدة التي اصبتها فمن رسالة اقتضبتها • ثم ساله الحارث عن مضمون تلك الرسالة فاخبره

انه انشأها في اعقاب دين لحقه في طوس ورفعها الى الوالي الذي أمـر بقضـاء الدين ثم ضـم السروجي الى حاشيته واختصه بأثرته ، وبعد ان مكث عنده فترة من الزمن استأذنه « بالارتحال على هذه الحال » •

٢٧ـ المقامة الوبرية ـ قال الحارث بن همام « ملت في ريق زماني الذي غبر الى مجاورة اهل الوبر لآخذ إخذ نفوسهم الأبية والسنتهم العربية » • وبعد ان مكث فترة من الزمن ضلت ناقته فالحف في طلبها « يجوب البيداء على فرس محضار » فالتقى بأبي زيد واخبره الخبر ثم اضطجعا وعندما استيقظ الحارث لم يجد السروجي ولا الفرس فبات ليلة ليلاء ثم وصف الحارث كيفية عثوره على ناقتـه وعلى ابي زيد مع الفـرس • فاسترجـع الناقـة بمساعدة ابي زيد وعاتبـه على هروبـه بالفرس فانشد معتذرا :

ان يكـــن ساءك امسي
فلقـــد ســرك يومـــي

فاغتفــر ذا لهـــذا
واطرح شكــرى وذمي

٢٨ـ المقامة السمرقندية ــ قـــال الحارث بن همــام « استبضعت في بعض اسفارى القند وقصــدت سمرقند » ودخلت المسجد الجامع واصغيت الى الخطيب المصقع الذي هو ابو زيد السروجي الذي حف في القيام وأحفى في الاكرام « عندما لحظني ثم استصحبني الى داره واودعني خصائص اسراره وحين انتشر جناح الظلام وحان ميقات المنام احضر أباريق المدام » . فقلت اتحسوها أمام النوم ... وانت إمام القوم ... !!

٢٩ـ المقامة الواسطية ــ يصف الحارث بن همام نزوله في واسط في خان مكتظ بالمسافــرين وسماعــه

احدهم يقول لابنه بألغاز « قم يابني واستصحب ذا الوجه البدري واللون الدري والأصل النقي والجسم الشقي الذي قبض ونشر وسجن وشهر وسقي وفطم وأدخل النار بعد ما لطم فقابض بــه اللاقح الملقح المفسد المصلح المكمد المفرح المعني المروح ذا الزفير المحرق والجبين المشرق الــذي اذا طرق رعد وبرق وباح بالحرق » • ثم يذكر الحارث انه عندما سمع تلك الالغاز وانطلق في اثر الغلام ليخبر فحوى الكلام فرأى الغلام انتهى الى حجارة القداح فتناول منها حجرا لطيفا وناول بائعها رغيفاً • فعلم الحارث انها سروجية • فعاد الى الخان وتهادى مع السروجي بشرى الالتقاء وشكا الحارث زمانه فحبذله السروجي « مصاهرة من يأسو جراحه ويريش جناحــه » • فعقــد القران •• ثم اخذ في مواعدة اهل الخان واعداد حلواء الخوان وزجر الحارث عن المؤاكلة « فوالله

ما كان بأسرع من تصافح الأجفان حتى خر القوم للاذقان » واخذ ابو زيد يجمع من غرفهم ما خف حمله وغلى ثمنه .

ثم سافر الى البطيحة وحده بعد ان عجز عن اقناع الحارث بالسفر معه ليزوجه هناك وانشد في ذم الدهر وفي اهمية المكر :

لاتلحني فيمـا اتيت
فأننـي بهـم عروف

ولقد نزلت بهـم فلم
أرهم يراعون الضيوف

وبلوتهـم فوجدتهـم
لمـا سبكتهـم زيـوف

مـا فيهـم إلا مخيـ
ـف ان تمكن او مخوف

لا بالصفي ولا الوفـي

ولا الحفي ولا العطوف

فوثبت فيهم وثبة الذئب الضرى على الخروف
وتركتهم صرعى كأنهم سقوا كأس الحتوف

وتحكمت فيما اقتنوه

يدى وهم رغم الأنوف

ثم اثنيت بمغنم

حلو المجاني و القطوف

لطالما خلفت مكلوم الحشى خلفي يطوف

ووترت ارباب الارائك

والدرانك والسجوف

ولكم بلغت بحيلتي

ما ليس يبلغ بالسيوف

لكنني اعددت حسن الظن بالمولى الرؤوف

تعبر هذه المقامة اصدق تعبير عن موقف الحريري المتحامل من بعض افراد الفئة الاجتماعية المترفة . فقد وصفها ابو زيد السروجي بالقسوة والزيف والافتقار الى المشاعر الانسانية النبيلة وطلب في الحارث بن همام ألا يلومه على ما فعل بهم لأنه يعرفهم ويرى انهم يستحقون ما حل بهم وان بدا ذلك لاول وهلة ومن الناحية السطحية عملا عدوانيا لامسوغ له ـ ومع ذلك فان السروجي الذي نال بغدره بهم ما لم ينله بالسيف يأمل ان يغفر الله له لان قصده نبيل وأنه اضطر على استخدام هذا الاسلوب الماكر . وفي المقامة ناحية اجتماعية اخرى اتضحت بقول السروجي للحارث « قد علق بقلبي ان تصاهر من يأسو جراحك ويريش جناحك » باعتبار ان مصاهرة الاثرياء عامل مهم من عوامل انتشال الفقير من حالته البائسة .

٣٠ـ المقامةا لصورية / ذكر الحارث بن همام انه سافر الى صور وعند بلوغها شاهد جماعة ذاهبة الى عقد قران فرافقهم حتى افضوا الى « دار رفيعة البناء وسيعة الفناء تشهد لبانيها بالثراء والسناء » • وعندما قدموا الاقدام للدخول رأوا « دهليزا مجتلا بأطمار مخرقه ومكللا بمحارف معلقـه وهنـاك شخص على قطيفة فوق دكة لطيفة » • فسأله الحارث عن رب هذه الدار فقال / ليس لها مالك معين ولا صاحب مبين « انما هي مصطبة المقيفين والمدروزين ووليجة المشقشقين والمجلوزين » قال الحارث فقلت لنفسي انا لله على « ضلة المسعى وإمحال المرعى • وهممت في الحال بالرجعى • لكنني استهجنت العود في فورى والقهقرة دون غيرى فولجت الدار متجرعا الغصص كما يلـج العصفور القفص واذا فيها ارائك منقوشة وطنافس مفروشة وقد اقبل المملك يميس في بردته • وجلس

كانه ابن ماء السماء . ثم نادى مناد ... وحرمة ساسان استاذ الاستاذين وقدوة الشحاذين لاعقد هذا العقد المبجل ... إلا الذي صال وجال وشب في الكدية وشاب .. فبرز حينئذ شيخ .. وقال .. الحمد لله .. الذي شرع الزكاة في الاموال وزجر عن نهر السؤال ، وندب الى مواساة المضطر وأمر باطعام القانع والمعتر ووصف عباده المقربين في كتابه المبين فقال وهو اصدق القائلين .. والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .. والذي يجزى المتصدقين والمتصدقات .. والذي ابتعث محمداً ينسخ الظلمة بالضياء وينتصفه للفقراء من الاغنياء فرفق صلى الله عليه وسلم بالمسكين وخفض جناحه للمستكين وفرض الحقوق في اموال المثرين وبين ما يجب للمقلين على المكثرين » .. وبعد انتهاء الشيخ من خطبته عقد قران شخص وصفه بابشع الاوصاف على امرأة

تفوقه في التدنى .. ثم نهض الشيــخ « يسحب ذلاذله ويقدم اراذله » واذا هو السروجي .

يصف الحريري ـ بلسان الحارث بن همام في هذه المقامة فئة الاوباش والمحتالين وارباب المهن الخسيسة الذين يحصلون بالاساليب الدنيئة على الثروة وينعمون بالحياة رغم كونهم بنظره ـ غارقين بالرذيلة الى الاذقان . كما اتضح ذلك بالصفات التي اطلقها الحارث على الرجل والمرأة اللذين عقد السروجي قرانهما . وفيها ايضا تعريض صريح بأرباب الثراء وخروجهم على مبادى الدين الحنيف . كما انها تنطوي ايضا على موقف الاسلام وموقف الرسول الكريم من جماهير الشعب الكادحة بالتعبير الحديث .

٣١ـ المقامة الرملية ـ يذكر فيها الحارث بن همام انه سافر بتجارة الى الشام . وعند وصوله بلدة الرملة

وجد قوما متأهبين لتادية فريضة الحج . فانتظم في سلكهم ورافقهم حتى وصلوا الجحفة وارتدوا لباس الاحرام وطلع عليهم ابو زيد السروجي، على هيئة شيخ وقور واعظ خبير بالحكمة من تأديا هذه المناسك وبسرائر كثير من الاشخاص الذين يمارسونها رئاءاً ويتشبثون بالقشور وبالحركات الآلية الميكانيكية الظاهرة تاركين الجوهر وراء ظهرهم فأراد ابو زيد تنبيهم الى ذلك على عادته المشهورة في مثل هذه المناسبات . فقام واعظا وقال.

« أتخالون ان الحج هو اختيار الرواحل وقطع المراحل . ام تظنون ان النسك هو نضو الاردان وإنضاء الأبدان ومفارقة الولدان .. كلا والله بل هو اجتناب الخطية قبل اجتلاب المطية واخلاص النية .. واصلاح المعاملات امام اعمال اليعملات ... فوالذي شرع المناسك للناسك وارشد السالك في الليل الحالك مانقى الاغتسال

بالذنوب من الانغماس في الذنوب[٤] ولا تعدل تعرية الاجسام بتبعية الأجرام • ولاتغني لبسة الأجرام عن المتلبس بالحرام • ولاينفع الاضطباع بالأزار مع الاضطلاع بالأوزار • ولايجدي التقرب بالحلق مع التقلب في ظلم الخلق ••• ولايشهد المقام إلا من استقام ••• فرحم الله امرءاً صفا قبل مسعاه الى الصفا •• ونزع عن تلبية قبل نزع ملبوسة[٥] •

في هذه المقامة ـ كما في المقامة السابقة ـ تعريض صريح بالاثرياء السادرين في غيهم ووصفهم

---

٤ ـ الرواحل = الابل الهجان • النسك = التعبد • النخو = النزع • اليعملات = جمع اليعملة وهي الناقة النجيبة • الذنوب (بفتح الذال = الدلو الممتلىء ماء •

٥ ـ صفا من الصفو ضد الكدر والمراد اخلص في اعماله وتخلص من قبح افعاله تلبيسه = تخليطه • نزع عنه = كف وامتنع • نزع ملبوسه ـ خلع ثيابه

بالابتعاد عن جوهر الدين الحنيف • فقد اوضح الحريري ـ على لسان السروجي الجوانب الاجتماعية التي ينطوي عليها الحج واسهب في المقابلة بين مايتخذه الحجاج من اجراءات خارجية شكلية وسطحية ـ حسب رأيه ـ وبين ما يهملونه وهو جوهر الموضوع كما يقول • وذكر ان الامور المهملة عن قصد تسيء الى قدسية الحج وتفسده وان الاجراءات السطحية المتخذة لاتغني ولاتسمن من جوع •• ودعا الى ضرورة الاهتمام بالجوهر • ومن هذه الناحية يظهر موقفه التهذيبي الاصلاحي الذي هو صدى لظروفه التاريخية •

٣٢ـ المقامة الطيبية / أو الحربية ـ قصد الحارث بن همام مع بعض اصدقائه مدينة الرسول بعد اداء مناسك الحج « فأرجف بان المسالك شاغرة وعرب الحرمين متشاجرة » • فقال الحارث « وسرته والرفقة •• حتى وافينا بني حرب وقد آبوا من

حرب • فأزمعنا ان نقضي ظل اليــوم في حلــة القوم •• فرأينا انثيالهم وسألنا ما بالهم فقيل قد حضر ناديهم فقيه العــرب فأهراعهــم لهــذا السبب •• ثم نهضنا نتبع الهادى ونؤم النادى حتى اذا اظللنا عليه واستشرفنا الفقيه المنهود اليه الفيته ابا زيد » • ثم خطب ابو زيد في الحشد وفسر الغاز فقهيه عويصة فقلت له •

عهدى بك سفيها « فمتى صرت فقيها فانشد :

لبست لكــل زمان لبوســا

ولابست صرفيه نعمى وبوسا

وعاشرت كــل جليس بمــا

يلائمــه لأروق الجليســـا

فعند الــرواة أدير الكــلام

وبين السقاة أدير الكؤوســا

وطوراً بوعظي أسيـل الدموع

وطورا بلهوي أسر النفوسـا

على أنني من زمان خصصت

بكيد ولاكيد فرعون موسـى

ولـولا خساسـة اخلاقـه

لما كان حظـي منـه تعيسـا

فقال له الحارث « خفف الاحزان ولا تلم الزمان »، فقال « دع الهتار ولاتهتك الاستار » ثم دخلا مدينة الرسول وفازا من الزيارة بالسول ثم افترقا فأشام ابو زيد واعرق الحارث بن همام .

يندد الحريري في هذه المقامة على لسـان الحارث ــ ببني حرب الذين آبوا من حـرب « ويندد ايضا تنديدا ضمنيا بالحـرب ذاتهـا او الاقتتال بين الاخوة ويذكر في المقامة ايضا نمطا طريفا من انماط تلون السروجـي ومكـره وكيف اصبح فقيها بعد ان كان سفيها . وفيها اشارات

صريحة الى ان تلون السروجي ناجم في الاصل عن ظروف مجتمعه • وانه اضطر ان يلبس لكل حالة من حالات دهره المنقلب لبوسها • ومع ذلك فان حظه تعيس اتعاسة الزمان • وفي المقامة ضمنيا التنافر بين استقامة الحارث بن همام وتلون ابي زيد السروجي • ولكنني لا اعـرف لماذا اعـرق الحارث المستقيم وأشام السروجي المتلون • احصل هذا عرضا ام ان الحريري قصد به شيئا آخر •

٣٣ــ المقامة التفليسية ــ فحواها ــ ان الحارث بن همام ادى الصلاة في تفليس والفى ابازيد يعظ الناس على هيئة شيخ مفلوج يطلب المعونة فاسعفوه وطلبوا منه الانتساب فانشد :

لعمرك ما كـل فـرع يدل

جنـاه اللذيـذ علـى اصلـه

فكـــل ما حـــلا حـــين تؤتـــى
ولا تســـأل الشهد عـــن نحله

وميز اذا ما اعتصرت الكروم
سلافـــة عصرك مـــن خلـــه

٣٤ـ المقامة الزبيدية ـ يذكر الحارث بن همام انه ذهب الى زبيد ومعه غلام ثقفه وشغفه حبا ولكنه فقده فاضطر الى ان يبرز الى السوق بالصفر والبيض « ويستعرض » الغلمان ليتعرف الأثمان فعرض له ابو زيد السروجي على هيئة رجل قد « اختطم بلثام وقبض على زند غلام » ولما تأمل الحارث خلقه القويم وحسنه الصميم خاله من ولدان جنة النعيم فسأله عن اسمه فاجاب بعد تلكؤ « انا يوسف انا يوسف » .

ولقد كشفت لك الغطاء فان تكن
فطنا عرفت ومـــا أخالك تعـــرف

فقال الحارث « لقد شدهت عن التحقيق وأنسيت قصة يوسف الصديق » • ولم يكن لي هم إلا مساومة مولاه فيه واستطلاع طلع الثمن لأوافيه • وبعد أن تم الشراء استدنى البائع الغلام اليه وقبل ما بين عينيه •• وشمر ذيله وولى فلبث الغلام في زفير وعويل •• وتصلب تصلب المحى وتبرا من طينة الرق وجال مع الحارث في مخاصمة « اتصلت بملاكه وأفضت الى محاكمته » اتضحت اثناءها مكيدة ابن زيد •

٣٥ـ المقامة الشيرازية ـ برز فيها ابو زيد السروجي على هيئة شيخ ذي طمرين يناهز العمرين في ناد بشيراز ارتاده الحارث بن همام ووجد فيه جماعة يتطارحون الادب والالغاز بزهم السروجي بفطنته وغزارة معرفته •

٣٦ـ المقامة الملطية ـ يذكر الحارث بن همام مكوثه في ملطيه مع جماعة من محبي الادب ادتهم شجون

المفاوضــة الى التحاجي بالمقايضة وان تحاجيهم او مطارحتهم المسائل العويصة جرى على نسق استخدام كلمة (الكرامات) التي هي لفظ معناه الظاهر جمع كرامة ولكن يجوز ان يكون معناه ان النوم فات « الكرى مات » • والمعنى الثاني لكلمة الكرامات مثل معنى عبارة الكرى مات وفي هذه المقامة يبرز السروجي على هيئة شيخ ضليع باللغة وعميق الغور بمعرفة الاحاجي والالغاز •

٣٧ـ المقامة الصعيدية ـ دخل الحارث بن همام صعدة واتصل بسراتها فنعت له قاض بها رحيب الباع خصيب الرباع فتقرب اليه فبينما القاضي جالس للأسجال دخل السروجي على هيئة شيخ بالــي الرياش بادي الأرتعاش يصف ولده بالعقوق والولد ينكر ذلك ويقول ان والدى مادعا قط الا آمنت ولا ادعى الا أمنت بيد أنه كمن يبغــي « بيض

الانوق ويطلب الطيران من النوق » مع أنه أوصاني بقوله :

ارض بادنى العيش واشكر عليه
شكر من القل كثير لديـه

وحام عن عرضك واستبقـه
كما يحامـي الليث عن لبدتيه

ولا ترق مـاء المحيـا ولـو
خولك المسئول ما في يديـه

« فعبس الشيخ واكفهر وقال إن من أمر بالقناعة وزجر عن الضراعة هم ارباب البضاعـة واولو المكسبة بالصناعة واما ذوو الضرورات فقد أستثني بهم في المحضورات وهبك جهلت هـذا التأويل ولم يبلغك ما قيل البت الذي عارض اباه في ما قال وما حاباه ؟ :

لاتقعدن عـن ضـر ومسغبـة
لكي يقال عزيز النفس مصطبـر

وانظر بعينـك هل ارض معطلة
من النبـات كأرض حفها الشجر

فعـد عما تشير الاغبيـاء بـه
فأي فضل لعـود مالـه ثمـر

وارحل ركابك عـن ربع ظمئت به
الى الجناب الذي يهمي به المطر

واستنزل الري من در السحاب فأن
بلت يـداك بـه فليهنك الظفـر

في هذه المقامة حث على السعـي في طلب الرزق الحلال وتمجيد للكرامة الانسانية وشجب للأذلال الخانعين واستثارة للنشاط الانساني في مغالبـة الطبيعة •

٣٨ـ المقامة المروية ـ يذكر الحارث بن همام ولعه بالادب وملاقاة اهله وفي مقدمتهم السروجي وهذا هو الذي حبب الأغتراب وجعله يستعذب « السفر الذي هو قطعة من العذاب » • وبينما هو يوما يحضره والى مرو دخل ابو زيد واطنب في مدح الوالي شاكيا سوء حاله ومخاطبا الوالي بقوله « اوجب لي ما يجب عليك واحسن كما احسن الله اليك واياك ان تلوي عذارك عمن ازدراك وام دارك فقربه الوالي وفرض له من سيوب نبله ما اذن بطول ذيله وقصر ليله • فنهض عند بردن ملآن وقلب جذلان وهو ينشد :

من يكن نال بالحماقة حظا
أو سما قدره لطيب الاصول

فبفضلي انتفعت لا بفضولي
وبقولي ارتفعت لا بقيولي

ثم قال « تعسا لمن جدب الادب

وطوبي لمن جد فيــه ودأب »

٣٩ـ المقامة العمانية ـ يذكر الحارث بن همام انه تعب من اسفاره المتواصلة في البرفمال الى « اجتياز التيار واختيار الفلك السيار » وبينما كان يستعد مع صحبه الى الشاطيء فاجأهم السروجي بزي شيخ يرجوهم اصطحابه وان معه عوذه عن الانبياء ماخوذة .. وهي حرز السفر عند مسيرهم في البحر والجنه من الغم اذا جاش موج اليهم فاصطحبوه واقلعوا والبحر رهو والجو صحو والعيش صفو الى ان عصفت الجنوب وعسفت الجنوب » ولمــا القوا مراسيهم في إحدى الجزر ولاحظوا قصــرا منيفا وحوله خدم تبدو عليهم والكآبة لكــون سيدهم ينتظر مولوداً ولكن « عسر مخاض الوضع حتى خيف على الاصل والفرع » . فقال ابو زيد عندي « عزيمة الطلق التي انتشرت سمعتها في

الخلق » . « فادخل القصر وسجد وعفر وسبح واستغفر فولد المولود . واحاطت الجماعة بابي زيد تثني عليه وتتبرك بمساس طمريه حتى خيل للحارث بن همام انه القرني أويس او الأسدي دبيس . وعندما حال وقت الرحيل لم يسمح الوالي بحركة ابي زيد واوعز بضمه الى خزانته وان تطلق يده في خزانته فجنح ابو زيد نحو البقاء وانحى عليه الحارث بالتعنيف عندما مال حيث يكتسب المالُ فانشد ابو زيد :

لاتصبون الى وطن

فيه تضام وتمتهن

وجب البلاد فأنها

ارضاك فاختر وطن

في هذه المقامة يشجب الحريري ـ على لســــان الحارث بن همامـ جنوح ابي زيد نحو البقاء طمعاً بالحصول على المال والجاه . وفيها من الجهة الثانية

تحريض ـ على لسان ابي زيد ـ على الانتقال من المكان الذي يشعر فيه الفرد بالاهانة او الامتهان الى حيث الشعور بالعزة والكرامة وكلمة « وطن » هنا تعني محل الاقامة في حدود الوطن الكبير ـ البلاد العربية ـ الاسلامية الشاسعة آنذاك ـ ولاتعني « الوطن » بمعناه الجغرافي الحديث ودليلنا على ذلك ان جميع تنقل السروجي في جميع المقامات جرى داخل الوطن لا خارجه •

٤٠ـ المقامة التبريزية ـ عزم الحارث بن همام على مفارقة تبريز حين « نبت بالذليل والعزيز » وقد الفى بها ابا زيد السروجي ملتفا بكساء ومحتفا بنسائه « فسأله عن خطبه والى ان يسرب مع سربه فاشار ابو زيد الى امرأة منهن باهرة السفور ظاهرة النفور وقال تزوجت هذه لتؤنسني في الغربة ••• فلقيت منها عرق القربة تمطلني بحقي وتكلفني فوق طوقي وها نحن قد تساعينا الى

الحاكم ليضرب على يد الظالم وكان الحاكم ممن يرى فضل الأمساك ويضن بنفاثة السواك » ، فترافعا بكلام قارص بذيء فنهرهما الحاكم فقالت المرأة والله « ما اسجـن عنـه لسانـي الا اذا كساني . ولا ارفع له شراعي دون اشباعي » . فحلف ابو زيد انه لايملك سوى اطماره الرثاث وعندما استفسر القاضي عن هويتهما اجاب الشيخ :

انا السروجي وهذى عرسـي
وليس كفؤ البدر غير الشمس

فأمر بجبرى ان تشا او حبسي
ففي يديك صحتي ونكسـي

فرق لهما القاضي وواساهما فثارت الزوجة عند ذلك واستطالت واشارت الى الحاضـرين وقالت

يا اهل تبريز لكم حاكم
أو في على الحكام تبريزا

ما فيه من عيب سوى أنه

يوم الندى قسمته ضيزى

فامتعض القاضي وقال « هذا يوم عصيب • هـذا يوم نصاب فيـه لا نصيب » والتفت الى حاجبه وامره ان « يرضى المهذارين ويقطع لسانهما بدينارين » : في هذه المقامة تعريض خفي بنزاهة الحاكم الـذي تشترط فيـه العفة والاستقامـة ليحكم بين الناس بالعدل •

٤١ـ المقامة التنيسية ـ عندما تجاوز الحارث بن همام مرحلة الشباب أسف لانطلاقه مع الهوى وندم على ما فرط منه وأخذ يجنح نحو الزهد وينشد اهله • وعند جوده في تنيس انتظم في حلقة برز فيها السروجي على هيئة شيخ يعظ الناس وبعد ان ظفر بسبب عطائهم انساب وقال للحارث « اهل لك في ابتدار البيت لنتنازع كأس الكميت !! » فقال

الحارث « ويحك اتأمرون الناس بالبر ـ وتنسون انفسكم » •

٤٣ـ المقامة النجرانية ـ قال الحارث بن همام « ترامت بي مرامي النوى ومساري الهوى الى ان صرت ابن كل تربة واخا كل ذي غربة إلا انني لم اكن اقطع واديا ولا اشهد ناديا إلا لاقتباس الادب المسلي عن الاشجان المعلي قيمة الانسان » • فلما القيت الجران بنجران • اتخذت اندبتها معتمري وقد ظهر لي ابو زيد في احد الاندية على هيئة شيخ مع جماعة يتطارحون الألغاز والأحاجي •

٤٣ـ المقامة البكرية ـ يذكر الحارث بن همام سفره الى ديار بكر ومعه ابو زيد على ناقة قال انه جلبها من حضرموت بعد ان كان في تحصيلها الموت عندما هربت منه وطفق ينشدها فسمع قائلا يقول « من ضلت له مطيه حضرمية وطيه » ؟ فمضى الى صاحب الصوت وطلب ان يسلمه الناقة فامتنع

وتشاجرا واحتكما فابرز الشخص نعلا قال الحكم انها نعله والتفت الى السروجي وقال واما مطيتك ففي رحلي فانهض لتسلم ناقتك فأثنى الحارث بن همام على طرافة القصة وسأل السروجي هل الفيت أسمى منك بلاغة ؟ واحسن في اللغة صياغة ؟ قال نعم وروى انه عندما اراد الزواج واستشار فتى في أيهما افضل البكرام الشيب اطنب ذلك الغلام في وصف محاسن كل منهما ومساوئه بشكل أذهله . ويستطرد الحارث بن همام في مواصلتهما السير الى قرية « عزب عنها الخير » . وانهما لقيا غلاما حياه ابو زيد وقال له (ايباع هاهنا الرطب بالخطب فأجاب الفتى بالنفي . فقال ابو زيد ولا البلح بالملح . قال الغلام كلا . فقال ابو زيد ولا التمر بالشعر ؟ فقال الغلام كلا فقال . ابو زيد ولا العصائد بالقصائد ؟ فانكر الغلام ذلك وقال للشيخ اسكت عافاك الله قد عرفت فنك اما بهذا

المكان فلا يشترى الشعر بشعيرة ولا النثر بنثارة .. واما جيل هذا الزمان فما منهم من « يميح اذا صيغ له المديح ولا من يجيز اذا انشدت له الاراجيز ولا من يغيث اذا اطربه الحديث ولا من يمير ولو أنه امير وعندهم ان مثل الاديب كالربع الجديب » . في هذه المقامة شكوى من كساد سوق الادب .

٤٤ـ المقامة الشتوية ـ ملخصها ان الحارث بن همام قصد ـ في ليلة قارصة البرد ـ شخصا على ضوء نار فتلقاه هذا بترحاب وادخله على اضياف « يجتنون فاكهة الشتاء » . وبعد تناول الطعام اخذوا يتجاذبون اطراف الحديث فادهشهم ابو زيد بغزارة علمه والغازه واحاجيه التي او جزها في قصيدة تقع بزهاء خمسين بيتا . وعندما اعجزهم حل الغازها انبرى الشيخ السروجي نفسه لحلها

فخلع عليه صاحب المنزل ثم استسلم القوم للكرى وانسل السروجي من المجلس •

٤٥ـ المقامة الرملية ـ ذكر الحارث بن همام انه حضر في بعض اسفاره مجلس قاضي الرملة وكان من ارباب الدولة والمصولة وقد ترافع اليه « بال في بال وذات جمال في أسمال » وطلبت المراة الطلاق « بلسان السليطة الوقاح » ، وحاول الشيخ أسترضاءها بالكلام بعد أن ذم سوء الاوضاع التي جعلته يقصر بحقها • فرق لهما قلب القاضي وأسعفها ، وبعد الاستفسار عن جلية امرهما علم انهما السروجي وزوجته وان محاكمتهما مكيدة فندم •

٤٦ـ المقامة الحلبية ـ ذكر الحارث بن همام سفره الى حمص والقاءه بابي زيد السروجي وعنده عشرة صبيان كل حفظ ابياتا معينة تختص بموضوع / منها مما كلماته غير منقوطة (الابيات

العوامل) وبعضها بالعكس (العرائس) وبعض ثالث ذو كلمتين احداهما منقوطة والاخرى بغير نقط (الاخياف) وبعضها ذو الابيات المتائيم (المتماثلة) وهكذا من انواع البديع . وقد لامه الحارث على اختيار حمص وتخيره حرفة الحمقى فاجاب :

تخيرت حمص وهذى الصناعه
لأرزق حظوة اهـل الرقاعـه
فما يصطفى الدهر غير الرقيع
ولا يوطـن المـال الا بقاعـه
ولا لأخي اللب مـن دهـره
سـوى مالعـير ربيط بقاعـه

ثم قال « اما ان التعليم أشرف صناعة واربح بضاعة وانجح شفاعة وافضل براعة وربه ذو امرة مطاعة وهيبة مشاعة ورعية مطواعه يتسيطر تسيطر امير

ويرتب ترتيب وزير ويتحكم تحكم قدير ويتشبه بذى ملك كبير إلا انه يخرف في امر يسير ويتسم بخف شهير ويتغلب بعقل صغير ولا ينبيك مثل خبير » •

٤٧ـ المقامة الحجرية ـ قال الحارث بن همام « احتجت الى الحجامة وانا بحجر اليمامة فأرشدت الى شيخ « هيئته نظيفة وحركته خفيفة » وسمعته يقول لأحدهم اراك قد أبرزت راسك قبل ان تبرز قرطاسك ووليتني بذالك ولم تقل لي ذالك » • فتلاحيا والغلام يعتذر عن ضيق ذات يده ويرجو إمهاله والحجام يقسو عليه بالكلام فأعرض الفتى وندم الحجام واخذ يعتذر من فرطاته وانشد •

اخمد بحلمك ذكاه ذوسفه

من نارغيظك واصفح ان جنى جان

قال الحارث بن همام ولما انتظم بينهما عقد

الاصطلاح وهم الشيخ بالمرواح ثم ازدلفا لي وانشد :

كيف رأيت خدعتي وختلي
وما جرى بيني وبين سخلي
بالله يا مهجة قلبي قل لي
هل ابصرت عيناك قط مثلي
يفتح بالرقية كل قفل
ويستبي بالسحر كل عقل
ويعجن الجد بماء الهزل
ان يكن الاسكندري قبلي
فالطل قد يبدو أمام الوبل
والفضل للوابل لا للطل

٤٨ـ المقامة الحرامية ـ روى الحارث بن همام عن ابي زيد السروجي قال « ما زلت مذ رحلت عنسي وارتحلت عن عرسي وغرسي أحن الى أعيان

البصرة حنين المظلوم الى النصرة لما اجمع عليه
ارباب الدارية واصحاب الرواية من خصائص
معالمها وعلمائها ومآثر مشاهدها وشهدائها فأداني
الأختراق في مسالكها الى محلة موسومة بالاحترام
منسوبة الى بني حرام ذات مساجد مشهودة
وحياض موروده :

فصل ان شئت فيها من يصلي
وأما شئت فادن من الدنان

ودونك صحبة الأكياس فيها
او الكاسات منطلق العنان

فبينما انا انقض طرقها .. اذ لمحت .. مسجدا
مشتهرا بطرائفه وقد أجرى اهله ذكر حروف البدل
وجروا في حلبة الجدل . فعجت نحوهم
لاستمطر نوهم لا لاقتبس نحوهم وبعد أداء فريضة
الصلاة نهض غلام يتشكى من إدمانه الخمر ويطلب

النصيحة على ترك هذه المعصية فقال ابو زيد هذه
نهزة صيد وانشد :

إن عندي عــلاج مــا
بت منـــه مسهـــدا

انا مـــن ساكني سروج
ذوى الديـــن والهـــدى

كنت ذا ثروة بهـــا
ومطاعـــا مســـودا

يوأ الـــروم ارضنـــا
بعـــد ضغـــن تولـــدا

فاستباحـــوا حريـــم من
صادفـــوه موحـــدا

فطوحـــت في البـــلاد
طريـــدا مشـــردا

اجتدي الناس بعد ما
كنت من قبل مجتدى

والبلاء الذي به
شمل أنس تبددا

استباء ابنتي التي
اسروها ولتفتدى

فاستبن محنتي ومد الى
نصرتي يدا

قال ابو زيد فلما اتممت هدرتي وأوهم المسؤول صدق كلمتي اغراه القوم بمؤاساتي فرضخ لي على الحاضرة ونضخ لي بالعدة الوافرة فانقلبت الى وكرى فرحا بنجح مكرى ثم انشدت :

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد بيشه
وأدر قناة المكر حتى تستدير رحى المعيشة
وصيد النسور فأن تعذر صيدها فاقنع بريشة

وارح فؤادك إن نبا دهـر من الفكر المطيشة

٤٩ـ المقامة للساسانية ـ تتضمن وصية ابي زيد (وقد بلغ من العمر عتيا) لابنه حيث قال له « المرء بنشيه لا بنسبه وبالفحص عن مكسبه لا عن حسبه . وكنت سمعت ان المعايش / امارة وتجارة وزراعه وصناعة فمارست هذه الاربع لأنظر ايها اوفق وانفع . فما احمدت منها معيشة ولا استرغدت فيها عيشة ثم يسترسل ابو زيد في وصف مساوىء كل منها ومخاطره والنكبات التي ترافقه وتنجم عن ممارسته » ولم ار ما هو بارد المغنم لذيذ المطعم وافي المكسب صافي المشرب إلا الحرفة التي وضع ساسان اساسها ونوع اجناسها . فشهدت وقائعها معلماً واخترت سيماها لي مسما اذ كانت المتجر الذي لايبور والمنهل الذي لايغور » ويقول وكان اهلها اعز قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم من حيف ولا يقلقهم سل سيف .. اينما سقطوا

لقطوا ولا يتخذون اوطانا ولا يتقون سلطانا ..
« يابني ان الارتكاض بابها والنشاط جلبابها
والفطنة مصباحها والقحة سلاحها ... وعليك
بالأقدام ولو على الضرغام » .

في هذه المقامة يصف الحريري ـ على لسان السروجي انواع المهن الشائعة آنذاك وما تؤول اليه بالفعل ممارسة كل منها ويذكر المخاطر التي تنجم عن ممارسة العمل السياسي والاداري في ظروف المجتمع آنذاك حيث يرتفع المرء احيانا الى اعلى المراتب ويفقد احيانا اخرى ثراءه وجاهه وحياته لمجرد نزوة او وشاية به لدى الحاكم بأمره . وما يصدق على هذه المهنة يصدق أيضا على المهن الاخرى التي يتعرض اصحابها الى الأفقار والامتهان بفعل نزوات طائشة يمارسها الحكام . ولهذا فان السروجي يوصي ولده بامتهان الكدية التي مارسها هو نفسه وذاق حلاوتها . ويوصيه

ايضا بمراعاة شروطهـا وان ينشط في طلبهـا .
ويبدو أن الحارث بن همام لم يعقب على هـذه المهنة لأنه اكتفى بمجرد وصفها وكونها تدر بالفعل مردودا ماليا على صاحبها .

٥٥ـ المقامة البصرية ـ دخل الحارث بن همام جامع البصرة فوجد ابا زيد السروجي على هيئة واعظ يقول « يا اهل البصرة رعاكم الله ووقاكم فما اضوع رباكم وافضل مزاياكم . دهماؤكم اطوع رعية لسلطان واشكرهم لأحسان . وزاهدكـم اورع الخليقة واحسنهم طريقـة علـى الحقيقـة وعالمكم علامة كل زمان والحجة البالغة في كل أوان . ومنكم من استنبط علم النحو ووضعـه والذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه » . ثم ينتقل السروجي فيذكر سيرته « كم فج سلكت وحجاب هتكت » وكم الباب خدعت وبـدع ابتدعـت وفرص اختلست وأسداً افترست . ولكن فرط

فرط والغصن رطيب فأما الان وقد استشن الاديم وتأود القويم .. فليس إلا الندم إن نفع .. »

فقال له الحارث بن همام « لقد أغريت في هذه النوبة فما رأيك في التوبة فقال وابيك » لقد قمت فيهم مقام المريب الخادع ثم انقلبت منهم بقلب المنيب الخاشع . ثم ودعني وانطلق واورثني القلق وعاد الى سروج بعد ان فارقها العلوج . ولبس الصوف وام الصفوف وصار بها الزاهد الموصوف » .

تلك خاتمة المقامات حيث عاد السروجي الى مسقط راسه . واستقرت به النوى وفي المقامة كما هو واضح شجب لجميع الاعمال المنكرة التي مارسها السروجي ايام الشباب وعود الى الاستقامة والخلق القويم وفيها ايضا وصف عميق لاخلاق البصريين ومزاياهم الاجتماعية البارزة التي ما تزال ماثلة للعيان الى اليوم . ورحم الله أبا

نواس حيث قال :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت سرح اللهو حيث اساموا
فبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كـل ذاك أثـام

رقم الايداع في المكتبة الوطنية : بغداد
(٧٥٤) لسنة ١٩٨٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

الموسوعة الصغيرة

١٩٨٦

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول مختلف العلوم والفنون والاداب

تصدرها دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام

بغداد - أعظمية هاتف ٤٤٣٦٠٤٤ ص ب ٤٠٣٢٢

رئيس التحرير : موسى كريدي

سكرتير التحرير : ماجد أسد

الكتاب القادم

الظاهرة السكانية والتطور الجغرافي

تأليف

عبد علي الخفاف

السعر : ٢٥٠ فلس

دار الحرية للطباعة - بغداد